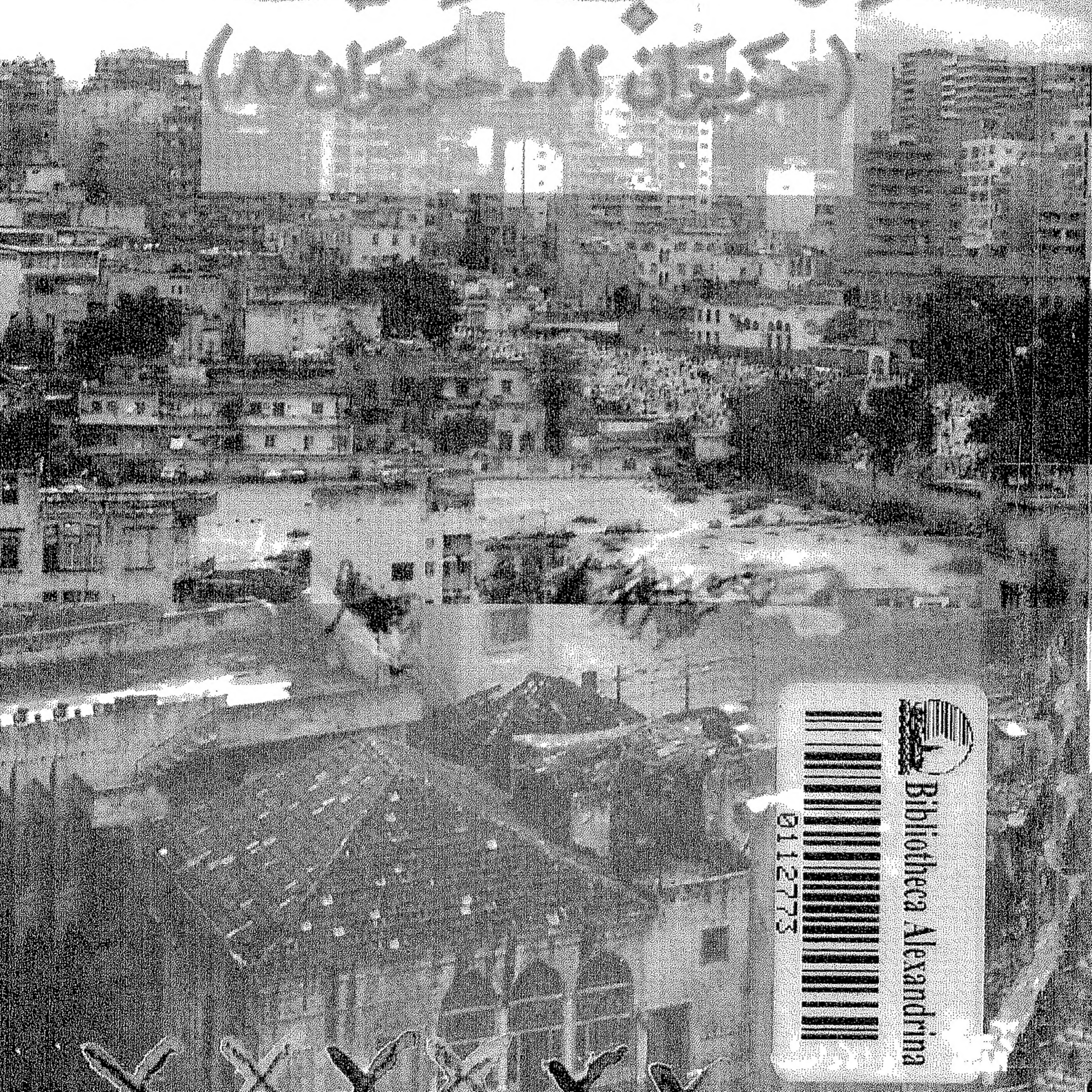


أفندي

كتاب الحيات

الحسين بن علي



Bibliotheca Alexandrina



0112773

كِتَابُ الْحِصَارِ

(حزيران ٨٢ - حزيران ٨٥)

أَدُونِيسُ

كِتَابُ الْحِصَارِ

(حزيران ٨٢ - حزيران ٨٥)

دار الآداب

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٩٨٥

الطبعة الثانية

١٩٩٦

الوقت

حاضناً سنبلة الوقت ورأسي برج نار:
ما الدّم الضارب في الرّمل ، وما هذا الأفول؟
قلّ لنا، يا لهب الحاضر، ماذا سنقول؟

مِزَقُ التاريخ في حنجرتي
وعلى وجهي أماراتُ الضّحيّة
ما أمرّ اللّغة الآن وما أضيّق باب الأبدية.

حاضناً سنبلة الوقت ورأسي برج نار:
... /أصديق صار جلاًداً؟ أجار

قال: ما أبطأ هولاكو؟ من الطارق؟ جاب؟
أعطه الجزية . . أشكال نساء
ورجال . . . صور تمشي / أشرنا
وتساررنا ، - خطانا
خيطة قتل /
أترى قتلك من ربك آت
أم ترى ربك من قتلك آت؟
- ضيعة الأحجية
فانحنى قوساً من الرعب على أيامه المنحنيه .

- لي أخ ضاع ، أب جُنَّ ، وأطفالي ماتوا
من أرجي؟ هل أضم الباب؟ هل أشكو إلى سجادة؟
- داخ ، هات الحق وامنحه الشفاء
من عطوس الفقهاء .

جثت يقرؤها القاتل كالطرفة / أهراء عظام ،
رأس طفل هذه الكتلة ، أم قطعة فحم؟

جَسَدُ هَذَا الَّذِي أَشْهَدُ أَمْ هَيْكَلُ طِينٍ؟
أَنْحَنِي ، أَرْتَقُ عَيْنَيْنِ ، وَأَرْفُو خَاصِرَهُ
رَبِّمَا يُسَعْفَنِي الظَّنُّ وَيَهْدِينِي ضِيَاءَ الذَّاكِرِهِ
غَيْرَ أَنِّي عَبَثًا أُسْتَقْرَىءُ الْخَيْطَ النَّحِيلُ
عَبَثًا أَجْمَعُ رَأْسًا وَذِرَاعَيْنِ وَسَاقَيْنِ ، لَكِي
أَكْتَشِفَ الشَّخْصَ الْقَتِيلُ

- لِمَنِ النَّمْلَةُ تُعْطِي دَرْسَهَا؟

وَلِمَ الدَّهْشَةُ؟ شِعْرٌ

مَرْجُ هَذَا الشَّرُّرِ الْفَاجِعِ بِالْعَيْنِ ، انْخِطَافٌ
أَنْ تَرَى بَيْتَكَ مَرْفُوعًا إِلَى اللَّهِ شِظَايَا، -

صَرَخْتَ بُومَةً عَرَّافٍ عَلَى مِثْدَنَةٍ
نَسَجْتَ مِنْ صَوْتِهَا قَوْسَ قُزْحٍ
وَبَكَتْ مَخْنُوقَةً حَتَّى الْفَرَحِ .

حاضِناً سنبلة الوقت ورأسي برج نارٍ :
... / كَشَفَ البهلُولُ عن أسرارِهِ
أنَّ هذا الزَّمنَ الثَّائِرَ دُكَّانُ حِلْيَةٍ ،
أنَّه مُسْتَنقَعٌ مِنْ أنبياءِ .

كَشَفَ البهلُولُ عن أسرارِهِ
سيكونُ الصِّدْقُ موتاً
ويكونُ الموتُ خُبْزَ الشُّعراءِ
والذي سُمِّيَ أو صارَ الوطنُ
ليس إلَّا زمناً يطفو على وجه الزَّمنِ .

كَشَفَ البهلُولُ عن أسرارِهِ
أين مفتاحكِ يا أهبَّةَ الطُّوفانِ ؟ لُطْفاً أغرقيني
وخُذني آخرَ شُطَّانِي خُذيني
سَحَرْتُني لُجَّةً لاهِبَةً
سَحَرْتُني قَشَّةً تَحْتَرِقُ

سَحَرْتُني طَرُقُ تَجْفَلُ مِنْهَا الطُّرُقُ

حَاضِنًا سَنِبْلَةَ الْوَقْتِ وَرَأْسِي بَرْجُ نَارٍ:
نَسِيتُ نَفْسِي أَشْيَاءَ هَوَاهَا
نَسِيتُ مِيرَاثَهَا الْمَكْنُونِ فِي بَيْتِ الصُّورِ
لَمْ تَعُدْ تَذْكُرْ مَا تَلْفِظُهُ الْأَمْطَارُ، مَا يَكْتُبُهُ حَبْرُ
الشَّجَرِ،

لَمْ تَعُدْ تَرْسُمُ إِلَّا
نَوْرَسًا يَقْذِفُهُ الْمَوْجُ إِلَى حَبْلِ سَفِينَةٍ
لَمْ تَعُدْ تَسْمَعُ إِلَّا
مَعْدِنًا يَصْرُخُ: هَا صَدْرُ الْمَدِينَةِ
قَمَرٌ يَنْشَقُّ مَرْبُوطًا إِلَى سُرَّةِ
غُولٍ مِنْ شَرَرِ
لَمْ تَعُدْ تَعْرِفُ أَنَّ اللَّهَ وَالشَّاعِرَ طِفْلَانِ يَنَامَانِ عَلَى خَدِّ
الْحَجَرِ.

نَسِيتَ نَفْسِي أَشْيَاءَ هَوَاهَا
وَلِذَا يُرْعِبُنِي الظِّلُّ - الغَدُّ الْمُرتَسِمُ
وَلِذَا يَمْلُؤُنِي الرَّيْبُ وَيَسْتَعْصِي عَلَيَّ الحَلَمُ
مُوثِقاً أركضُ من نارٍ لِنَارٍ
غَصْتُ تحتَ العَرَقِ الدَّافِقِ من جِسْمِي ، وقاسَمْتُ
الجِدَارَ

أَرَقَ اللَّيْلِ / (خُطَى اللَّيْلِ وَحُوشٌ . . .)
وَمِراراً قَلْتُ لِلشَّعْرِ الَّذِي يَرْسِبُ فِي ذَاكِرَتِي :
أَيُّ مَنشارٍ عَلَى عُنُقِي ، يُمْلِي
آيَةَ الصَّمْتِ ؟ لِمَنْ أُرْوِي رِمَادِي ؟
وَأَنَا أَجْهَلُ أَنْ أَنْتَزِعَ النَّبْضَ وَأَرْمِيهِ عَلَى طَاوِلَةٍ
وَأَنَا أَرْفُضُ أَنْ أَجْعَلَ مِنْ حَزْنِي طَبِلاً لِلسَّهَاءِ ،
فَلَأَقُلْ : كَانَتْ حَيَاتِي
بَيْتَ أَشْبَاحٍ وَطَاحُونَ هَوَاءَ

حاضناً سنبلة الوقت ورأسي برج نار :
شجر الحب بقصّابين آخى
شجر الموت ببيروت، وهذي
غابة الأسر تؤاسي
غابة النفي، - كما تدخل قصّابين في خارطة
العشب، وتستقطر أحشاء السهول
دخلت بيروت في خارطة الموت / قبور
كالبساتين وأشلاء - حقول
ما الذي يسكب قصّابين في صيدا، وفي صور،
وبيروت التي تنسكب؟
ما الذي، في بعده، يقترب؟
ما الذي يمزج في خارطتي هذي الدماء؟

... يبس الصيف ولم يأت الخريف
والربيع اسودّ في ذاكرة الأرض / الشتاء
مثلاً يرسمه الموت : احتضار أو نزيف
زمن يخرج من قارورة الجبر ومن كف القضاء
زمن التيه الذي يرثجل الوقت ويجترّ الهواء،

كيف، من أين لكم أن تعرفوه؟
قاتل ليس له وجه / له كل الوجوه . . .

حاضناً سنبلة الوقت، ورأسي برج نار:
منهك ألفت الآن وأستشرف - ما تلك الحرق؟
أتواريخ؟ أبلدان؟ أرايات على جرف الغسق؟

هوذا أقرأ في اللحظة أجيالاً وفي الجثة آلاف الجثث
هوذا يغمرنى لجج العبت،
جسدي يفلت من سيطرتي
لم يعد وجهي في مرآته
ودمي ينفر من شريانه . . .
الأنني لا أرى الضوء الذي ينقل أحلامي إليه؟
الأنني طرف أقصى من الكون الذي باركه غيري وجذفت
عليه؟

ما الذي يجتأ أعماقي ويمضي

بين أدغالٍ من الرّغبة، بلدانٍ - محيطاتٍ دموعٍ
وسلالاتٍ رموزٍ؟

بين أعراقٍ وأجناسٍ - عصورٍ وشعوبٍ ؟
ما الذي يفصلُ عن نفسي نفسي ؟
ما الذي ينقضُني ؟
أنا مُفترقٌ

وطريقي لم تعد، في لحظة الكشف، طريقي ؟
أنا أكثر من شخصٍ ، وتاريخي مهوأي ، وميعادي
حريقي ؟

ما الذي يصعدُ في قهقهة تصعدُ من أعضائي المختنقه ؟

أنا أكثر من شخصٍ وكلُّ
يسأل الآخر: مَنْ أنت ؟ ومن أين ؟
أعضائي غابات قتالٍ
... في دمٍ ريحٍ وجسمٍ ورقة ؟

أجنونٌ ؟ مَنْ أنا في هذه الظلمة ؟ علّمني وأرشدني
يا هذا الجنونُ

مَنْ أنا يا أصدقائي ؟ أيّها الرّاؤون والمستضعفون

لَيْتَنِي أَقْدَرُ أَنْ أَخْرَجَ مِنْ جِلْدِي لَا أَعْرِفُ مَنْ كُنْتُ ،
وَلَا مَنْ سَأَكُونُ ،

إِنِّي أَبْحَثُ عَنْ إِسْمٍ وَعَنْ شَيْءٍ أَسْمِيهِ ،
وَلَا شَيْءٍ يُسَمَّى

زَمَنٌ أَعْمَى وَتَارِيخٌ مُعَمَّى
زَمَنٌ طَمِيٌّ وَتَارِيخٌ حَطَامٌ
وَالَّذِي يَمْلِكُ مَمْلُوكٌ ، فَسَبْحَانَكَ يَا هَذَا الظَّلَامُ .

حَاضِنًا سَنِبْلَةَ الْوَقْتِ وَرَأْسِي بَرْجُ نَارٍ :
جَدِّي السَّامِيُّ مَاخُودٌ بِمَا يَنْسِلُهُ الدَّهْرُ الْعَمَاءُ
بَيِّغَاءُ ؟ أَمْ نَبِيٌّ مُفْرَغٌ فِي مَوْمِيَاءُ ؟
أَيُّهَا الْجَدُّ الَّذِي أَعْتَزَلُ الْآنَ طَرِيقَهُ
حَسَنًا ، أَنْتَ الَّذِي يَسْكُنُ فِي جَرَثُومَةِ الْمَاءِ وَأَطْبَاقِ السَّهَاءِ
وَمِنْ الْحِكْمَةِ أَنْ تَمْشِيَ ، كَمَا تَمْشِي ، شَمُوخًا لِلْوَرَاءِ
وَلَأَنْتَ السَّرُّ وَالْمَمْلَكَةُ الْمَكْتَبِرَةُ

بالنبّوات - أنا العاجِزُ عن فهمك ، والسّادِرُ في
الغِيّ ، وأنتَ المعجزة .
أيّها الجَدّ الذي أرفضه الآن وأحببتُ الخليقة
باسمِهِ الخالقِ ، لن تعرفني بعدُ ، ولن ينسبني شيءٌ إليك
غيرُ ذاكِ الطَّلَلِ الراسِبِ في نَفْسِي - يَبْكيني ، وَيُبْكيني
عليك .

حاضِناً سنبلةَ الوقتِ ورأسي بُرْجَ نارٍ :
آخِرُ العَهْدِ الذي أمْطَرَ سَجِيلاً يُلاقِي
أَوَّلَ العهدِ الذي يُمطرُ نَفْطاً
وإِلَهُ النَّخْلِ ، يَجْثُو
لِإِلَهِ مِنْ حَدِيدٍ ،
وأنا بينَ الإِلَهِينِ الدَّمُ المسفوحُ والقافلةُ المنكفئةُ
أَتَقَرُّ نارِي المنطفئة
وأرى كيف أداري
موتِي الجامحَ في صحرائِهِ ،
وأقولُ الكونُ ما ينسجُهُ حُلْمِي . . / تَنَحَّلُ الخيوطُ
وأرى نفسيَ في مَهْوًى وأُسْتَرْسَلُ في ليلِ الهبوطِ

وأرى الأشياء دولا بـ دخانٍ

وأرى العالمَ صَيِّداً

مُدَّتِ المائدةُ ، - الأجسادُ بَقْلٌ

والمواعينُ رؤوسٌ .

يجلسُ الله إلى مائدة الصَّيْدِ ، غزالٌ

كان خبَّازاً ، وضَبٌ

كان جندياً / إلهٌ

يأكل الصَّيْدَ ، أم الصَّيْدُ الإلهُ؟

طُرُقُ تكذبُ ، شُطَّانٌ تخونُ

كيف لا يصعقُك الآن الجنونُ؟

هكذا أُنْتَبِذُ الآكِلَ والأَكْلَ وأرتاحُ إلى كلِّ مَتَاءٍ

وعزائي أنني أوغِلُ في حلمي ، - أَشْتَطُّ ، أموجُ

وأغني شهوة الرِّفْضِ ، وأهْذي

فَلَكُ الزُّهْرَةِ خلخالٌ لأيامي ، والجَدْيُ سيوارُ

وأقول الزَّهْرَ في تيجانيهِ

شُرُفاتُ . . .

وَعَزَائِي أَنِّي أَخْرَجُ - أَسْتَنْفِرُ أَفْعَالِ الْخُرُوجِ .

أَسْرِجُوا هَذِي الرِّيحَ الْجَامِحَةَ
إِنَّهُ التَّارِيخُ مَذْبُوحٌ وَلَيْسَ الذَّبْحُ إِلَّا الْفَاتِحَةُ
وَاتْرَكُوا الذَّابِحَ وَالْمَذْبُوحَ وَالذَّبْحَ شُهوداً
وَاعْمُرُونِي بِبَقَايَاهُ ارْشُمُونِي
طَلَّلاً بَيْنَ الطَّلُولِ

هَكَذَا أَغْتَرَفُ الْحِكْمَةَ مِنْ مَعْدِنِهَا
صَارِخاً أَهْلاً بَأَنْقَاضِي أَهْلاً بِالْأَفُولِ .
وَعِداً يُطْفِئُنِي الْمَوْتُ وَلَا أَنْطَفِئُ
وَعِداً أَخْرَجَ مِنْ ضَوْءٍ إِلَى ضَوْءٍ سِوَاهُ
وَصَحِيحٌ أَنِّي أَوْهَنْ مِنْ خَيْطٍ وَلَكِنِّي أَسْمَى مِنْ إِلَهٍ

هكذا أبتدىء

حاضناً أرضي وأسرار هَواها، -

جَسَدُ البحر لها حبُّ له الشَّمْسُ يَدَانُ

جَسَدُ مُستودِعُ الرَّعْدِ ومَرَساةُ الحنانُ

جسدٌ وَعَدُّ أنا الغائب فيه

وأنا الطَّالِعُ مِنْ هذا الرَّهَانُ

جَسَدُ / غَطُّوا بضوء المطر العاشق وَجْهَ الأقحوانُ،

وَلَيْكُنْ...

أحتضنُ العصرَ الذي يأتي وأُمشي

جامِعاً، مِشْيَةً رُبَّانٍ، وأختطُ بِلادي، -

إصعدوا فيها إلى أعلى ذراها

اهبطوا فيها إلى أغوارها

لن تروا خوفاً ولا قيداً - كأنَّ الطَّيْرَ غُصْنُ

وكأنَّ الأرضَ طِفْلٌ، والأساطيرُ نِساءُ

حُلْمٌ؟

أعطي لمن يأتون من بعدي أن يفتحوا هذا
الفضاء.

ليس جلدي كوخ أفكار، ولا
شغفي خطاب ذكرى، -
نسبي رفض وأعراسي لقاح
بين قطبين، وهذا العصر عصري
الإله الميت، والآلة عمياء، وعصري
أنني أسكن حوض الرغبات
أن أشلائي أزهاري، وأنا
ألف الماء وياؤ النار - مجنون الحياة.

كاشفاً للوقت أسرار هواه:
هكذا يعترف
إنه الضليل، والخارج، والمختلف.

(بيروت، ٤ حزيران - ٢٥ تشرين الأول ١٩٨٢)

صحراء ، I

أَلْمَدَائِنُ تَنْحَلُّ ، وَالْأَرْضُ قَاطِرَةٌ مِنْ هَبَاءٍ ، -
وَحَدُّهُ الشَّعْرُ ، يَعْرِفُ أَنْ يَتَزَوَّجَ هَذَا الْفَضَاءُ .

لَا طَرِيقٌ إِلَى بَيْتِهِ ، حِصَارُ
وَالشُّوَارِعِ جَبَّانَةٌ ؛

مِنْ بَعِيدٍ ، عَلَى بَيْتِهِ
قَمَرٌ ذَاهِلٌ يَتَدَلَّى
فِي خِيوطِ الْغُبَارِ .

قلتُ : هذا طريقي إلى بيتنا، قال : كلاً
لن تمرّ، وسدّد نحوي رصاصاته، -
حسناً، لي في كلّ حيٍّ
رفقةً، لي بيوتٌ . . .

طُرقُ للدِّماءِ -

الدِّماءِ التي كان طفلٌ يُحدّث عنها
ويُوشوش أصحابه :
لم يعد في السّاء
غيرُ بعض الثّقوب التي سُمّيت أنجماً . . .

كان صوتُ المدينةِ ألطفَ من أن تشدَّ الرِّياحُ
حَبْلَ أوتارِهِ، -

كان وجهُ المدينةِ يزهو
مثلَ طفلٍ يُمَيِّءُ للَّيلِ أحلامُهُ
ويقدِّمُ كرسيَّهُ للصُّباحِ .

وجدوا أشخاصاً في أكياسٍ :

| | |
|------|--------------------------|
| شخصٌ | لا رأسَ لَهُ |
| شخصٌ | دونَ يدينِ ، ودونَ لسانٍ |
| شخصٌ | مخنوقٌ |

والباقون بلا هيئاتٍ وبلا أسماءٍ
- أجننتَ ؟ رجاءً

لا تكتبِ عن هذي الأشياءِ .

صفحة من كتاب
تتمرأى قنابل فيها
تتمرأى النبوات والحكم الغابرة
تتمرأى محارب، - سجادة من حروف
تساقط خيطاً فخياً
فوق وجه المدينة، من إبر الذكرة.

قاتل في هواء المدينة، يسبح في جرحها، -
جرحها سقطاً
زلزلت باسمها - بتزيف اسمها
كل ما حولنا
البيوت تغادر جدرانها
وأنا لا أنا.

رَبِّمَا جَاءَ وَقْتُ سَتُقْبَلُ فِيهِ
أَنْ تَعِيشَ أَصَمَّ وَأَبْكُمْ ، لَكِنْ
رَبِّمَا سَمَحُوا أَنْ تُتَمِّتَ : مَوْتُ
وَحْيَاةُ
وَبَعَثُ ،
وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ . . .

مِنْ نَبِيدِ النَّخِيلِ إِلَى هِدَاةِ الصَّحَارَى . . . إِلَى آخِرِهِ
مِنْ صَبَاحٍ يُهْرَبُ أَحْشَاءُهُ
وَيَنَامُ عَلَى جُثَثِ الثَّائِرِينَ . . . إِنْخُ* ،
مِنْ شَوَارِعَ ، مِنْ شَاحِنَاتِ
لِلْجُنُودِ ، الْحَشُودِ . . . إِنْخُ ،
مِنْ ظِلَالِ رِجَالٍ نَسَاءٍ . . . إِنْخُ ،
مِنْ قَنَابِلٍ مَحْشُوءَةٍ بِدَعَاءِ الْحَنِيفِينَ وَالْكَافِرِينَ . . . إِنْخُ ،

* تَقْرَأُ بِلَفْظِهَا الْكَامِلِ ، كَمَا هِيَ وَارِدَةٌ فِي السَّطْرِ الْأَوَّلِ .

مِنْ حَدِيدٍ يَنْزُ حديدًا وَيَنْزِفُ لحمًا . . . إلخ ،
مِنْ حَقُولٍ تَحْنُ إِلَى الْقَمْحِ وَالْعُشْبِ وَالْعَامِلِينَ . . . إلخ ،
مِنْ قِلَاعٍ تُسَوِّرُ أجسادنا
وَتَهِيلُ عَلَيْنَا الظَّلامَ . . . إلخ ،
مِنْ خِرَافَاتٍ مَوْتٍ تَقُولُ الحَيَاةَ ، تَقُودُ الحَيَاةَ . . . إلخ ،
مِنْ كَلَامٍ هُوَ الذَّبْحُ ، وَالذَّبْحُ ، وَالذَّابِحُونَ . . . إلخ ،
مِنْ ظَلامٍ ظَلامٍ ظَلامٍ
أَتَنْفَسُ ، أَلْمَسُ جِسْمِي - أَبْحَثُ عَنِّي
وَعَنكَ ، وَعَنهُ ، وَعَنْ غَيْرِنَا ،

وَأَعْلَقُ مَوْتِي

بَيْنَ وَجْهِي وَهَذَا الْكَلَامِ - التَّزْيِيفِ . . . إلخ .

سوف ترى، -

قُلْ اسْمُهُ

أَوْ قُلْ رَسَمْتُ وَجْهَهُ

مَدَّ يَدَيْكَ نَحْوَهُ

أَوْ ابْتَسِمَ،

أَوْ قُلْ فَرَحْتُ مَرَّةً

أَوْ قُلْ حَزَنْتُ مَرَّةً،

سوف ترى:

ليس هناك وطن . . .

غَيْرِ الْقَتْلِ شَكْلَ الْمَدِينَةِ - هَذَا الْحَجَرُ
رَأْسُ طِفْلٍ -

وهذا الدُّخَانُ زفيرُ الْبَشَرِ.

كُلُّ شَيْءٍ يُرْتَلُّ مِنْفَاهُ / بَحْرٌ

من دماءٍ - وماذا

تتوقع هذي الصِّباحاتُ، غير شرايينها المبحرة
في السديم، وفي لجة انجزره؟

سامروها، أطيلوا السَّمرَ

إنَّها تُجلِسُ الموتَ في حضنها

وتقلب أيامها

ورقاً شائخاً، -

احفظوا آخرَ الصُّورِ

من تضاريسها

إنَّها تتقلب في رملها

في محيطٍ من الشرِّ

وعلى جسمها

بقع من أنين البشر.

بِذَرَةٍ بِذَرَةٍ، تتناثرُ في أرضنا
فاحفظي سِرَّ هذي الدِّماءِ
يا حقولاً تُغذي أساطيرنا، -
أتحدّث عن نكهةٍ في الفصولِ
وعن بارقٍ في الفضاءِ .

ساحةُ البرجِ - (نقشُ يوشوش أسرارهِ
لقناطرٍ مكسورةٍ . . .)
ساحةُ البرجِ - (ذكرى تفتّش عن حالها
في غبارٍ ونارٍ . . .)
ساحةُ البرجِ - (صحراءُ مفتوحةُ
تصطفّيها الرياحُ، وتجترّها . . .)
ساحةُ البرجِ - (سِحْرُ
أن ترى جُثّاً تتحركُ / أطرافُها
في زقاقٍ، وأشباحُها
في زقاقٍ / وتسمع آهاتها . . .)

ساحةُ البرج - (غربٌ وشرقٌ
والمشائق منصوبةٌ، -

شهداء، وصايا . .)

ساحةُ البرج - (حشدٌ

من قوافلٍ : مُرٌّ

ولبانٌ ومسكٌ

والبهاراتُ تفتِّحُ المهرجانُ . . .)

ساحةُ البرج - (حشدٌ

من قوافلٍ : رعدٌ

وانفجارٌ، وبرقٌ

والأعاصيرُ تفتِّحُ المهرجانُ . . .)

ساحةُ البرج - (أرّختُ هذا الزمانُ

باسمِ هذا المكانِ) .

- جُثَّتْ أَوْ حُطَامٌ
وَجْهَ بِيروتَ؟

- هذا

جَرَسٌ، أُمُّ صِرَاخٍ؟

- صديقٌ؟

- أَنْتَ؟ أَهْلًا.

أَسَافَرْتَ؟ عُدْتَ؟ جَدِيدُكَ؟

- جَارٌ لَنَا قَتَلُوهُ . . . /

.....

لَعِبْتُ /

- نَزَدُكَ الْيَوْمَ أَقْوَى،

- مُصَادَفَةٌ /

.....

ظُلُمَاتٌ

وَالكَلَامُ يَجُرُّ الْكَلَامَ.

ضوء الشمعة

طول سنوات الحرب الأهلية، خصوصاً في أيام الحصار،
تعلمت أن أقيم علاقاتٍ ودّية مع الظلمة، وأن
أعاشر ضوءاً آخر، لا يجيء من الكهرباء، وليس
ضوء المصباح الغازي أو مصباح الكاز.

أكره هذين المصباحين،

ينفشان رائحة تقتل حاسة الشم؛ تسمم طفولة
الهواء وهواء الطفولة. ويطاردان العيون بنوعٍ من
الأشعة تنغرز في البصر كأنها الإبر.

فوق ذلك، يذكران بالنفط العربي الذي حول
الحياة العربية إلى تيهٍ من الظلام.

ذلك الضوء الآخر هو ضوء الشمعة .

في نفسي الآن ما يدفعني إلى التساؤل : أكانت هذه
المعاشرة التي أردتها اختياراً، تعبّر عن احتفائي
بالذاكرة أو عن رغبة في هذا الاحتفاء؟ أكانت نوعاً
من استعادة الشعر الآخر الذي تركته لنا أعمال
أسلافنا إلى جانب الشعر الذي تركته لنا عقولهم؟ أم
لعلها كانت تعبيراً عن اللفتة إلى مزيد من الالتصاق
بجسد الأجدية، كما كان يتخيله، ويتعارك معه،
ويخلقه، ذلك الفينيقي الآثم الذي ابتكرها. أقول:
الآثم، وأسأله، عبر هذه المسافة التي تفصلنا
وتوحدنا في آن: لماذا لم تتركنا نكتب بجسد الأشياء
ذاتها، بدلاً من هذه الحروف الضاربة في التجريد
العقلي؟ ألم تكن ثقافة المادة التي هي في مستوى
الطبيعة أقرب إلى الإنسان، وأجدي، وأكثر تعبيراً
عنه، من ثقافة الرمز والإشارة؟ وهل تقدر أيها الآثم
الأول، بعدما أحدثه أبناؤك وأحفادك في مدينتك
الأولى، بيروت، أن تؤكد أن الكاتب الذي يخطّ

الحروف والكلمات ويكتبها، أكثر تعقلاً وفهماً من
الناطق الذي يُغَنِّيها أو يُجَرِّبها بين شفثيه أصواتاً؟
وها أنت ترى كيف أن الأول يجعل من العالم كله
مستنقعاً للضجيج يلوّث كل شيء، وكيف أن
الثاني يُحوّله إلى أوتار تخرج منها موسيقى،
تتمازج فيها الأصوات الصاعدة من حناجر الطبيعة.

أقول: اخترت أن أعاشر ضوء الشمعة. 'لم أعن، باديء
الأمر، بلون الثوب الذي تلبسه الشمعة. كان إجمالاً،
أزرق سماوياً. في أية حال، لم يكن لدي إمكان
لاختيار ما أريد من ألوان، فقد كان اختياري
محكوماً بما يُعرض عليّ، وكان ما يُعرض عليّ محكوماً
بالوقت والحالة.

شمعة بثوب أزرق سماوي . . . كانت تعيدني، مع ذلك، إلى ما يذكر بحياة الكهف، الكهف الذي يعيدنا إلى الاختبار المعرفي الأول، ذلك أنه يربطنا بالرحم المعرفية الأولى: الخروج من ليل العالم إلى نهاره، من الظل الذي تحدّث عنه أفلاطون إلى النور الساطع، من الوهم إلى الحق.

لكن، هل خرجنا حقاً؟ كنت أتساءل فيما أراقب الظل الذي تتركه الشمعة على أرض المكان أو على جداره، والظل الذي يتركه رأسي. وكان يُخيّل إليّ، ربما بشيء من الالتباس، أن هذا الظل الذي نضفي عليه صفة الوهم، ليس أقل حقيقة مني أو من الشمعة. وكنت أقول، فيما أرى الموت يأخذ بعضنا بلمحة، لا نزال نُدير ظهورنا للشمس. وقد يكون أفلاطون أوّل من أخطأ، وأسس للخطأ، في ما يفصل بين الظل والنور، الوهم والحقيقة، وفي ما يسوّغ أن نسمّي هذا الشيء وهمّاً، وذلك الشيء

حقيقة، وفي ما يعطينا حق التوكيد: أين تبدأ حدود
الوهم، وأين تبدأ حدود الحقيقة، وكيف، ومتى؟

شمعة بثوب أزرق سماوي . . .

كان بعضنا يحسب أن هذا الذي يظنه «النور» أو «الحق»
وفقاً لما يرى أفلاطون، ليس إلا صعوداً في سلم
الكهرباء، وأن الأكثر صعوداً هو الأكثر جدارة بأن
يتخذ من أية نجمة يراها، كرسيّاً يجلس عليه أو
حديقة يتنزه فيها. لهذا كانوا ينظرون إلى الشمعة
وضوئها بنوع من الاستخفاف يصل أحياناً إلى
الازدراء.

كنتُ، مع قلة، مأخوذاً بالهبوط، على العكس، في
الظل، في هذا الليل الشفاف الذي يتعانق فيه

الوضوح والغموض ، ويتحركان في موجة واحدة .
كنا نقول إن الوهم أو ما نسميه الوهم ليس إلا حقاً
لم يستنفده البصر (أي البصيرة والباصرة) بعد ، وأن
ما نسميه الحق ليس إلا وهماً استنفدناه . وكنا نقول :
الحالة الطبيعية للشيء هي الظل ، والنور حالته
العابرة . إذ لو تحوّل العالم كله إلى نور ، أو إلى نور
كهربائي ، لفقد هذا العالم أسرارَه ، وفقد جماله
وجاذبيته . لهذا كنتُ من جهة الظل ، وكنتُ تبعاً
لذلك ، الى جهة الشمعة ، بينما كان بعضنا إلى
جانب النور الكهربائي الساطع . وكان يزيد في
حماسهم له ، أنهم كانوا يرون في الكهرباء حفيدة
لطاقة فينيقية ظهرت مرة لكي تمارس فعلها ، لكنّها
اختفت ، لأسباب عديدة ، لكي تظهر بشكل آخر
غير فينيقي ، في مكان آخر .

تتمثل هذه الطاقة رمزياً (لعل الأصح أن نقوليه : تتمثل

أسطورياً) في امرأة لبنانية - يونانية أو سورية -
إغريقية، (إذا كنا حريصين على احترام تاريخية
الأسطورة) اسمها اليكترا. واليكترا هي أخت
لقدموس (الفينيقي) الذي حمل الأبجدية إلى الغرب
(اليوناني، بخاصة)، وبنّت لأطلس الذي يحمل على
كتفيه السماء، وابنة لأخت بروموثيوس الذي
اختطف النار من الآلهة وأعطاهما لبني الإنسان. ومن
قدموس انحدر طاليس، أول من درّس في المعابد
الفرعونية، خصائص الضوء (لعل الأصح أن
نقول: خصائص الكهرباء)، الكامنة في العنبر
الأصفر، الذي تُصنّع منه، للمناسبة، أجمل
المسابح وأثمنها.

نذكر هنا الذين يكرهون المسابح، ويحبون الكهرباء بشيء
ربما يجهلونه أو لا يتبهنون إليه هو أننا نقدرُ بالمسبحة
وحدها، أن نلامس الكهرباء: هذا الجسد العنبري
الذي يحتكّ به جسدنا دون أن يُصعق - وذلك

بفضل الظل، هذا الليل الشفاف الذي يلبسُ
الجسد العنبري، ويلبسه هذا الجسد. وما أعمق
المتعة التي تحظى بها، أيها القارئ، حين يُتاح لك
أن تصفي إلى سمير الصايغ يتحدث عن هذا
الجسد العنبري المتكهرب، أو تلك الكهرباء
المتجسدة في العنبر. ذلك أنه حين يتحدث عنها،
فيما يتفحصها ويمرّر عليها أطراف أصابعه، أو
يمرّرها بين أطراف شفّتيه، تشعر كأنّ غيوماً أخذت
تتجمّع، وأن برقاً يكاد أن ينفجر ويغمر المكان.

وطاليس هو نفسه رمز أول للتفاعل بين الحساسية
الفينيقية - الفرعونية، والحساسية الإغريقية وقد
قرأت، استطراداً، من يقول في ما يشبه الجزم أن
طاليس هو أول من تنبأ، سنة ٦١٠ قبل الميلاد،
بكسوف الشمس.

كنت، في ضوء الشمعة، أستعيد هذا التاريخ
الأسطوري، وكنت أقارنه بالتاريخ الحي الذي
نعيشه لحظة لحظة، ويكتبه بالنار والحديد،
بالصواريخ والقنابل، بالأشلاء البشرية، أبناء
عمومتنا، أحفاد موسى وسليمان - وهما من أنبيائنا
المشركين - وكانت لهذا الثاني، فيما يرويه تراثه
النبوي، دروب سرية للكلام مع الأشياء الجامدة في
الطبيعة، ومع كائناتها الحية، وكانت للأول تلك
الحُظوة المفردة: الله نفسه كلمه، ومن هنا سُمِّيَ كلِّم
الله.

قلت: كنت أقارن بين ذلك التاريخ الأسطوري - الوثني،
وهذا التاريخ الواقعي - الإلهي الذي نعيشه يومياً،
وألاحظ دون أن أخفي دهشتي:

هوذا إنسان لم يكلم الله ولم يعرفه، ولم يُتَح له أن
يستضيء إلا بشمعة - ربما لم يسعفها الحظ حتى في
أن تلبس ثوباً أزرق سماوياً، لكنه، مع ذلك،

يعرف أن يخلق تاريخاً يرقى بالإنسان والعالم ويفتح
أمامها آفاقاً لتقدم بلا نهاية .

وها هو إنسان آخر كلمه الله وآثره على الخلق جميعاً،
والكهرباء كلها خاضعة له كأنها ناقةٌ تجثو أمامه،
لكنه مع ذلك يبدو كأنه يخلق تاريخه بدءاً من قتل
الإنسان والهبوط في هاوية بلا نهاية من جحيم
الأشلاء والدماء .

كنت، فيما أقارن وأستتج، أحتضن ظلَّ الشمعة
النحيل، وأوشوشه بعض أسراري . ثم ألفت نحو
المتوسط مصغياً إليه يهدر غير بعيد عن أجسادنا شبه
الجامدة من الحيرة والرعب، أو من الموت الذي قد
يصعقنا بين هنيهة وهنيهة، ألفت وأشاركه - هو

الذي ابتكر ضوء العالم - نشيجه المتموج في محيط
الظلام.

إنه الحصار: طوفان - لكن أين السفينة، وإلى أين
نخرج؟ ولا شيء ينتظرنا غير ذلك الشبح الآلي -
«الفانتوم» الذي يعمل على تحويلنا إلى رماد ذهبي
يصنع منه الجامحون من أبناء عمومتنا، أحفاد موسى
وسليمان، تيجانهم وعروشهم الجديدة.

كنا كلنا شطح بنا الخيال، يمسك بنا ضوء الشمعة،
ويردنا ظلها الى اللحظة الواقعية الحية. هكذا،
نقيء إلى نفوسنا، ونرجع إلى ظلها المحاصر.

كان بعضنا، في هذه العودة، يفتح كتاباً ما، لكي

يستوهم حالة أخرى، أكثر منه لكي يقرأ، خصوصاً
أن بعضنا كان يمضي بعيداً في نقد القراءة: كيف
تمكن القراءة وأنت جالس في الكتاب ذاته الذي
تقرؤه، أو تتحرك في كل سطر منه؟ كيف يمكن أن
تقرأ وأنت نفسك المكتوب - المقروء؟

أما أنا فكنت أعاشر أشياء أخرى. أتوهم أن للشمعة
أمامي طريقاً سلكته بالوراثة. بدأت جدة عريقة،
وتابعته بعدها حفيداتها وأبناء الحفيدات. وكنت
أتوهم أنني أرى الزوايا التي أقامت فيها والأشخاص
الذين عشقوها فيما كانت تحترق بين أيديهم. وكثيراً
ما خيل إلي أنني أسمع أبا نواس يقارن بين ضوءها
وضوء الخمرة التي يتناولها. (الخمرة هي أيضاً جسد
كهربائي والفرق بينها وبين العنبر، أن جسد الأولى
سائل وجسد العنبر جامد). وكثيراً ما خيل إلي أنني
أشاهد أبا تمام يتقلب على فراشه في ضوء شمعة
شاحبة، وقد احمرت عيناه، وعبثاً يحاول النوم لأن في

أعضائه ناراً تأكله . وكثيراً ما شُبّه لي أن ضوء
الشمعة لا يغري صعاليك الشعر الآخرين وأنهم
يؤثرون عليه ، في هذه الصحراء من البشر ، ضوء
النجوم . وأحياناً يترأى لي المتصوّفون ، وأتصور أنني
أكاد أن ألس حنين بعضهم إلى أن يذوب في الله كما
تذوب الشمعة أمام عينيه .

لا يكشف ضوء الشمعة الغطاء عن الغائب وحده في
الماضي أو الحاضر ؛ يكشف كذلك الغطاء عن
الوجوه التي تسهر معك حول جسدها الذي ترى
إليه يذوب نقطة نقطة . أو لعل ضوء الشمعة مناسبة
تتيح الكشف ، أكثر مما يكشف هو ذاته .

كانت الوجوه التي يسكن أصحابها في المبنى الذي نسكنه ،

تتراكض وتتجمع حول ضوء الشمعة في سديم من
التجاعيد والقسمات والملامح والأسارير والنظرات
والتساؤلات:

وجهٌ بحيرةٌ راكدة ليس فيها أي تلويحة لأيّ شراع،
وجهٌ يبدو في الظل كوجه خروفٍ يقاد إلى الذبح،
وجهٌ غارقٌ في أحزانه كأنه ثقبٌ في الظلام،
وجهٌ صفحةٌ بيضاء مفتوحة على الصمت،
وجهٌ غربالٌ تنزل منه الكلمات وتتساقط في جميع
الاتجاهات،
وجهٌ دفترٌ لا نقرأ فيه غير النسيان، أو على الأصحّ إرادة
النسيان،
وجهٌ امرأةٌ هي في الواقع رجل،
وجهٌ رجلٌ هو في الواقع امرأة.

كان ضوء الشمعة يكشف الغطاء عن الشمعة ذاتها. إنها

سيدة الصمت، تحترق دون أن تتأوه أو تستغيث.
وهي كذلك من جهة الليل على الرغم من أنها،
ظاهرياً، من جهة النهار. صحيح أنها تضيء، لكن
لا لكي تعمّم النهار، بل لكي تجعل الليل أكثر كثافة
وأكثر حضوراً.

فالشمعة التي هي الضوء - سيّالاً، إنما هي ليل داخل
الليل، أو هي الليل باكياً، أو هي الليل ماسحاً
عينيه بأطراف نجمة بعيدة، أو هي الليل لابساً
قميص النوم، أو هي الليل وقد استيقظت
شهوته . . .

وللشمعة سرير، لكن لا وسادة لها، ولا تنام . . . ربما
لمزيد من الغوص في موج الليل. ربما لمزيد من
الالتصاق بغور ذلك الليل الآخر: الموت. ربما
لتعميق التأمل في ذلك العالم الخارجي الذي يلهب

- البيوت التي تتطاير في أثر السماوات ، الأجساد التي تخرقها الشظايا ، الأجواء المليئة بنثار اللحم والعظم ، حيث تتداخل الأجساد الغريبة التي لا يعرف بعضها بعضاً ، وتتعانق وتتآلف ، الأصوات الصاعقة التي تنسج للأفق ثياباً من الرماد والجمر . . . أو ربما لكي نفهم ذلك الغبار الكوني الذي يحمل القيم والأخلاق ، الفضائل والمثل ، ويذروها ، صانعاً منها ذلك الهباء المبتذل ، الذي يسمى مجد الحروب وانتصاراتها ، أو ربما لكي نزداد قناعة أن ما سمي الإنسان هو في الحق ، الحيوان الذي تيسر له أن يمشي ، بخطأ طبيعي ، على قدمين اثنتين . . .

مرةً أخرى ؛ يأخذنا ضوء الشمعة بعيداً ، لنعد .
نعود إلى ضوء الداخل القريب - في تلك الغرفة السفلى

من المبنى ، والتي سميناهما ملجأ . هنا يتجسد
الليل ، حقاً . هو للمرأة ، رجل . وهو للرجل ،
امراً .

هكذا يصبح الزمن كله جزءاً من الليل ، وفي معاشرته ،
نرى إلى الشهوة تقطر من أطرافه ، ونرى إلى ساقيه
كيف تنفتحان وتنطبقان في حركة لا يزيدنها ضيق
الملجأ إلا حيوية ورحابة . ونشعر أن القمر وأخواته
النجوم نهر غير مرئي يرفد ضوء الداخل ، فتشتعل
منارات من طبيعة عجيبة ، تكشف لنا عن علاقات
من التآلف تجمع بين المتناقضات ، وتوحد بين
أشخاص لا يلتقون أبداً في أي مكان ولأي سبب .

كنا نصدق ، في مثل هذه الحالة ، ما يروى عن بعض
القدماء ، الذين كانوا في لغة أجدادنا ، أولياء -
نصدق أن النور كان ينبع ، في الليل ، من أطرافهم

ورؤوسهم لكي يضيء ما حوله، ولكي يكون إشارة
ما لتائه ما.

وكان بعضنا يتخذ من هذه الحالة فرصة لكي يركز
بالفضائل التي ينطوي عليها ضوء الداخل. كان
يصفه بأنه لا ينطفئ، وبأنه ضوء يشع لوجه
الضوء، ناذراً نفسه لتبديد الظلمة. ثم يقارنه - هو
السجين في ظلمات الملجأ، بذلك الضوء الطليق
الذي تنقله الصواريخ والقنابل، فيؤكد أن هذا
الأخير، على الرغم من أن أصحابه لا يلهجون
إلا بالحرية والتقدم، ليس إلا اسماً آخر لظلام لا
جد في الطبيعة نفسها ما يشبهه: ظلام مندور لكي
يطفىء النور، أياً كان، وأنى وجد.

وكان يستطرد مؤكداً، وقد استأنس بصمت بعضنا، وقبول
بعضنا الآخر لما يقوله - أن ذلك الفلاح الفرعوني

الذي كان يكتب أوهامه وأحلامه على أوراق
البرديّ، في ضوء شمعة نحيلة، أو أن ذلك البحار
الفينيقي الذي كان يعيش ضيقاً للموج
وللشواطىء، أكثر غنى وعمقاً، في حساسيته
الإنسانية وتطلعاته من هذا الإنسان الذي يفخر،
اليوم، بأنه يمتطي الأشباح الآلية ويهدم، في
لحظات، مدن البشر وقراهم وأكواخهم...

الشمعة النحيلة تكاد أن تنطفىء. حسناً تفعل. كأنها
كرهت هي أيضاً ذلك الضوء الذي يخرج من
القذائف والصواريخ التي تجثم في حنجرة بحرنا
المتوسط، وتقطع حبالها الصوتية التي امتزجت،
مرة، بأبهى الأصوات التي غنت لمجد الإنسان.

وأنت، هل ضجرت، يا صديقي القارىء من هذا
القديم الضارب في أعماق التاريخ؟ لكن، ألا ترى
كيف ينبجس الشعر مما يظن بعضنا أنه نقيض
للشعر؟ ألا ترى كذلك أن هذا الذي نسميه واقعاً
ليس إلا قشرة تتفتت، منذ أن تلامسها، وتفصح
عمّا يختبئ وراءها: ذلك الواقع الدفين الآخر،
حيث الإنسان هو نفسه شعر الكون.

قلت الكون، لا لكي أهرب من هذا الملجأ الضيق،
المعتم، بل لكي أحسن الإحاطة بما ينطوي عليه من
رحابة لا تحد، وبما يزخر به من ضوء الداخل.

عطرٌ متهور يهبط الدرجات المظلمة الى الملجأ، اتركوا
الباب مفتوحاً، وإلا اختنقنا.

ليس ضوء الشمعة، كما يبدو لي في هذا الملجأ، ضوءاً، بل هو نوع من العتمة الأكثر قدرة على الإضاءة من كل ضوء. ذلك أنها تضيء القلب، وتجعل الجوارح كلها تتوهج بنور آخر هو نور الرغبة في أن تعرف ذاتك وأن تمتلكها - وحدها، ولا شيء إلاها. هذه العتمة إضاءة سرّية تقتلعك حتى من ظلك، وتلقي بك في بُؤرة من التفجّر النوراني، وتشعر - أنت المترابط المتحد، أنك المنفصل المنفرد. تشعر أنك، دائماً، في حالة انتظار، تترقب حدثاً ما، لا في الخارج، هذه المرة، بل في داخلك، في أحشائك. تشعر أنك في حالة يمكن أن يُقال عنها إنها حالة الغيم: لا تعرف هل أنت داخل في المطر، أم في الصحو. ولا يعود الظلام ظلاماً: يُصبح ترقباً على عتبة نور باطن يكاد أن يظهر. بل يُصبح الكلام على ضوء الظلمة ممكناً، كما هي الحال في إمكان الكلام على ظلمة الضوء.

هكذا كانت الشمعة تردني إلى ليل المعنى - إلى الانصهار
في الكلّ الغامض . ليل المعنى ، - أرى ، فيما وراء
شرفاته ، بيتنا الأول - الطفولة الأولى ، وأستشفُّ
القنديل الذي كنتُ ألبأ بين يديه ، مستسلماً لأهواء
جسدي . وأستعيدُ بعضَ هواياتي : كنت ، حين
تجيء ساعة النوم ، لا أضع بين التراب وجسدي إلا
بساطاً من الصوف - أجملُ فراشٍ للجسد الذي
يتكونُ من هباء الضوء وأثير الحلم . أحياناً ، كنت
أكتفي بحصير من القصب اللين .

هكذا نمتُ كهرباء الحياة في أعضائي .
وكانت إليكتروا تتلطف وتمضي معي جزءاً من وقتها .
وكان أصدقائي الشعراء يجلسون إلى جانبي ، أصغي
إليهم يتحدثون عن طاقات أخرى لا تتسع لها هذه
الأنابيب الكهربائية المتمدنة .

ليل المعنى، - كنت أحسّ بجسدي يتمدد في شرارٍ،
سأحاول أن أترجم لك، أيها الجسد الآخر الصديق،
ما تبقى منه في ذاكرتي،

أ - كنت أنامٌ وحيداً،
خوفاً من أن تهجرني الوحدة،

ب - لا يمكن الانتهاء من تجميل العالم
لأنه حينذاك، ينتهي .

ج - لا شيء يريدني،
ذلك أنني أريد كل شيء .

د - الموت قريبٌ
لأنه فكرة لا جسد،
والحبُّ بعيدٌ
لأنه جسدٌ لا فكرة .

هـ - جبلٌ مسقُوفٌ بالضباب :
رجلٌ يُغامِر .
غابةٌ مسقوفةٌ بالضباب :
امرأةٌ تحلم .

- و - الحلم شاطىء
لسفينة لا ترسي ،
مع ذلك أنتمي إلى الحلم .
- ز - طهر ذاكرتك
من كل لحظة لم تعرف أن تستقبلك .
- ح - لم ترد هذه الشجرة تحيتي ،
الأنى حييت الريح ، قبلها ؟
- ط - حزني يلبس الليل ،
وليس له ثوب في النهار .
- ي - الطريق رمز السعادة
ذلك أنها عبور دائم .
- ك - الماء عاشق أبدي
لسبب واحد :
لا يعرف الفشل .
- ل - الموت إله وشيطان معاً ،
لذلك لا يحبه أحد .

هي ذي حالةٌ جديدةٌ تحكمك في ضوء الشمعة: صحيحٌ،
كيانك واحدٌ كما هو، لكن الجسد هو الذي يفكر،
وليست الروح إلا هذا التعضي الحركي الذي
نسميه الجسد. نكتشف هنا أن الفكر أو ما نسميه
الفكر لا حدَّ له، بجسديته ذاتها. ونكتشف أن ما
سمّيناه الجنون قد لا يكون إلا نشوة الكيان: نشوة
الجسد - الروح . عبثٌ إذن أن نجمع تجليات هذا
الكيان - وأن نسجنها في تصنيف أخلاقي بارد.
تصبح طاقة التأمل والعمل واحدة - حركة مفتوحة
على الأشياء، في عالم أشيائه مفتوحة على الحاسة،
مفتوحة على البصيرة. وتتفتت هباءً، أفكارنا عن
الواقع، وعن الإنسان، وعن التاريخ.

لا تستطيع، وقد نورك ضوء الشمعة النحيلة، أن تغالب
شعورك أنك لست في ملجأ، بل في مركب يُعائقُ،

تائهاً، بُحّة الليل . وتختلط الأشياء عليك : تجميء من
لا وطن : الغرب في خطواتك حذاء ، والشرق بيداء .
وترى إلى الناس ، في ذلك الخارج السديمي ، وقد
تحولوا إلى أشياء ، لا تُصنع بيد الله - وإنما تصنع بأيدي
أخرى وبطينة أخرى : هذا مسدس ، وهذه
رصاصة ؛ ذلك صاعق ، وتلك قبلة ، والمكان طائفة
- شبح .

ادخل ، إذن ، في الهاوية ، واقرأ في الصفحات التي اسمها
الوجوه ، إقرأ مختلف العصور : من الحجر حتى
الذرة ، مروراً بسفينة نوح وأخواتها السفن التي تمخر
رمل الصحراء .

اقرأ : الرجل كتلة رمادية ، بشكل محدّب أو مستطيل .
المرأة هيكل أحمر ، مدور أو مائل . الرجل ، تقريباً ،
رجل . المرأة ، تقريباً ، امرأة . ولا تعرف : هل
يسكن كل منهما في الطين ، أم الطين هو الذي

يسكن في كلٍّ منهما؟ ولا بدّ لك من أن تجد وسيلةً ما
لكي تسأل تلك السلالة التي تتحدّث عن أشياء من
جنسٍ آخر، بين أسمائها النّار والجنّة، إبليس
والله .

واقراً: حتى أشعة الشمس تبدو خيوط عنكبوتٍ ينسج
الشارع /

الشارع الذي لا يزال ينسجه الكاهنُ والمستعمر والتاجر -
الرموز الثلاثة لثلاث مراحل تاريخية (أوروبية)
تتلاقى على أرض لبنان، هنا حول الملجأ، وتصفق
للقاءٍ آخر: الأشلاء التي تتطاير ذراتٍ في سديم
بيروت .

/ . . . وكنت أقرأ في ضوء الشمعة النحيلة، كيف ينحني
الفضاء والزمن وينحني كل شيء . ربّما لحكمةٍ ما،
كنت أقول . لمحو الحدود بين المرثي وغير المرثي،

للمزج بين الأزمنة، والسخرية من تلك العصا
المستقيمة: عصا السماء.

... إنه الليل بأرجله الهائلة الصُّفْرِ يدبُّ على أرضٍ
صفراء: هكذا بدأت أهذي. وكنت أشاهدُ الرُّعْبَ
كيف يخرجُ ضبابُه ويسقف به رؤوسنا في الملجأ.
وأرى الهاوية تحضن أيامنا/الهاوية التي كنت أسمع
من ثقوبها صوتَ البحر القريب، وأرى تجاعيد
وجهه، وأتبيّنُ البُقْعَ التي تلوّن أطرافَ أفقٍ يتّكئ
على وسادة الزّبد.

كان في قلب كل منا نبضٌ يعرّش على اللحظات. وكنا،
كمثل كائنات من طبيعةٍ ثانية، نمتصُّ دمَ الليل، لا
لكي نقوى على التفكير، بل أملاً في أن نقوى على

مصافحة الفجر الطالع .

... أعودُ إذن، إلى الاستئناس بضوء الشمعة
النحيلة... بقدموس وإليكترا، بأسماء ولدت
تحت لهبها، من جلقامش إلى المتنبي، مروراً بامرئ
القيس وأبي تمام، دون أن ننسى أبا نواس . من
هوميروس إلى سان - جون بيرس، مروراً بهيراقليطس
وسوفوكليس، دانتي، ونيتشه، دون أن ننسى رامبو:
ضوء شمعةٍ فانية، يتحول إلى أبدية من النجوم .

... وكانت رائحة الشمعة في الملجأ تسلق الجدران
المعتمة، ثم تهبط وتتمدّد فوق الكتاب الذي اتخذته
وسادة متنقلة .

إنه الصباح : الشمس تجدد الوقت، والحياة تجدد الجسد .

صءاء ، II

... في زمانٍ يُصارحني : لستَ مِنِّي
وأصارحُه : لستُ منك ، وأجهد أن أفهمه . . .

وأنا الآن طيفٌ
يتشردُّ في مهمِّه
ويُخيم في جمجمه .

الفضاءُ مدىً يتضاءلُ ، نافذةٌ تتناهى ،
والنَّهارُ خيوطُ
تتقطعُ في رثيٍّ وترْفُو المساءُ .

صخرةٌ تحت رأسي، -
كلّ ما قلته عن حياتي وعن موتها
يتكرّر في صمتها .

أتناقضُ؟ هذا صحيحُ
فأنا الآن زرعٌ وبالأمس كنتُ حَصَاداً
وأنا بين ماءٍ ونارٍ
وأنا الآن جمرٌ ووردٌ
وأنا الآن شمسٌ وظلٌّ
وأنا لستُ ربّاً
أتناقضُ؟ هذا صحيحُ . . .

مُغْلَقُ بَابِ بَيْتِي
وَالظَّلَامُ لِحَافٍ، -
قَمَرٌ شَاحِبٌ حَامِلٌ فِي يَدَيْهِ
حَفْنَةٌ مِنْ ضِيَاءٍ،
عَجَزَتْ كَلِمَاتِي
أَنْ تَوَجَّهَ شُكْرِي إِلَيْهِ.

أَغْلَقَ الْبَابَ، لَا لِيَقَيِّدَ أَفْرَاحَهُ
... لِيُحَرِّرَ أَحْزَانَهُ.

كل شيء سيأتي ، قديم
فاضطحبت غير هذا الجنون - تهيأ
كي تظل غريباً . . .

لم تعد تشرق الشمس : تنسل في خفية
وتواري
قدميها بقش . . .

أتوقع أن يأتي الموت ، ليلاً
أن يؤسد أحضانه
وردة

تعبت من غبار يغطي جبين السحر
تعبت من زفير البشر .

يهبط اللَّيْلُ [هذا

وَرَقٌ كَانَ أَعْطَاهُ لِلْجَبْرِ - جَبْر الصَّبَاحِ الَّذِي لَمْ

يَجِيءُ]

يهبط اللَّيْلُ فوق السرير - [السَّرِير الَّذِي كَانَ هَيَّاهُ

عَاشِقٌ لَمْ يَجِيءُ]

يهبط اللَّيْلُ - لا صوت [غَيْمٌ، دُخَانٌ . . .]

يهبط اللَّيْلُ [شَخْصٌ

فِي يَدَيْهِ : أَرَانَبٌ؟ نَمْلٌ؟]

يهبط اللَّيْلُ [سُورُ الْبَنَاءِ يَهْتَزُّ، كُلُّ السَّتَائِرِ شَفَافَةٌ]

يهبط اللَّيْلُ، يُصْغِي :

[أَنْجَمٌ مِثْلَهَا يَعْرِفُ اللَّيْلُ خُرْسَاءُ

وَالشَّجَرَاتِ الْأَخِيرَةَ فِي آخِرِ السُّورِ لَا تَتَذَكَّرُ

مَاذَا يَقُولُ الْهَوَاءُ لِأَغْصَانِهَا]

يهبط اللَّيْلُ [بَيْنَ النَّوَافِذِ وَالرَّيْحِ هَمْسٌ]

يهبط اللَّيْلُ [ضَوْءٌ تَسْرَبُ، جَارٌ

يَتَمَدَّدُ فِي عُرْيِهِ]

يهبط اللَّيْلُ [شَخْصَانِ، ثَوْبٌ يَعَانِقُ ثَوْبًا

وَالنَّوَافِذِ شَفَافَةٌ]

يهبط اللّيل [هذا مزاجٌ -

قمرُ اللّيل يشكو لسِرِّوَالِه

ما شكاهُ المحبّون دوماً]

يهبط اللّيل [يرتاح في جرّة

مُلِئَتْ خمره - لا ندامى

رَجُلٌ واحدٌ يتقلّبُ في كأسِه]

يهبط اللّيل [يحملُ بعضُ العناكب، يرتاح للحشرات التي

لا تُسيءُ

لغير البيوت / إشاراتُ ضوءٍ :

أملكُ أتى؟ أم قذائفُ، أم دعواتُ؟

وجاراتنا

كلّهن ذهبنَ إلى الحجّ - عدن أقلُّ ضُموراً، وأكثرُ

غُنْجاً]

يهبط اللّيل [يدخل بين ثديي الأيا مى

وجاراتنا أيا مى]

يهبط اللّيل [تلك الأريكة - تلك الوسادة: هذي ممّرٌ

وهذي مَقْرٌ]

يهبط اللّيل [ماذا نُعدّ؟ نبيذاً؟ أم ثريداً ولحماً؟

يُخبىء اللّيل عنا شهية أحشائه]

يهبط اللّيل [يلهو قليلاً

مع حلازينه،

مع يَمَامٍ غريبٍ، ونجهلٌ من أين جاء، ومع حشراتٍ

لم تردّ في فصول الكتاب الذي خطّه اللّقاحُ عن

الحيوانِ وأجناسه]

يهبط اللّيل [رعدٌ

أم ضجيجُ الملائكِ جاءت بأفراسِها؟]

يهبط اللّيل [يهذي

يتقلّب في كأسه . .]

مَنْ يُرِينِي كوكباً
يمنحني الحَبْرَ لكي أكتبَ ليلي؟

كتبَ القصيدةَ، -

(كيف أقنعه بأنَّ غدي صحارى؟)

كتبَ القصيدةَ، -

(من يزحزح صخرة الكلمات عني؟)

كتبَ القصيدةَ، -

(لستَ مِنّا، إنَّ أنتَ لم تقتل أخاً)

كتبَ القصيدةَ، -

(كيف نفهم هذه اللّغة الطريفةَ

بين التّساؤل والقصيدة؟)

كتبَ القصيدةَ، -

(هل سيقدر ذلك الفجرُ المشرّدُ،

أن يعانقَ شمسَهُ؟)

كُتِبَ القصيدة، -

(بين وجه الشمس والأفق التباس)

كُتِبَ القصيدة، - (فَلِيْمْتُ . . .)

أَتَكَلَّمُ؟ عن أي شيء؟

وبأي اتجاه أسير؟

سألتك يا نورساً يتموج في زُرْقَةِ الْبَحْرِ . . . / كَلَّا

من يقول: سألت، ومن قال:

أَسْتَشْرِفُ الْبَحْرَ، أو أتحدث مع نورس؟

لم أكن،

لم أسير،

لم أقُل . . .

سَأُنَاقِضُ نَفْسِي
سَأُضِيفُ إِلَى مَعْجَمِي :
لُغَتِي لَسْتُ مِنْهَا ، فَمِي
لَمْ يَكُنْ مَرَّةً فَمِي -
آه ، يَا نَجْمَةَ الْخَرَابِ ، وَيَا وَرْدَةَ الدَّمِ .

كَانَ لِي أَنْ أُمَزَّقَ ، أَنْ أُتَنَاثَرَ فِي غَابَةِ مَنْ هَبَّ
كِي أَضِيءَ الطَّرِيقَ ،
مُدَّ لِي يَدَكَ الْحَانِيَةَ
رَدَّ مَا أَخَذْتَهُ لِيَالِيكَ مِنْ شَمْسِي الدَّامِيَةِ
أَيُّهَا الصَّدِيقُ
أَيُّهَا التَّعَبُ

كلّ ما أنكرته العيون ستّرعاه عيني، -
ذاك عهد الصّداقة بين الخراب وبينني.

منذ أسلمت نفسي لنفسي، وساءلتُ:
ما الفرقُ بيني وبين الخراب؟
عشت أقصى وأجملَ ما عاشه شاعرٌ:

لا جوابُ.

بعد أن مَزَّقَ الشعر ثوب الزَّمانُ
صرتُ أدعو الرِّيحَ لأهديها، لِتُصيرَ يداها
إِبراً
كي تَخيَطَ بأشلائه المكانَ .

ما الذي لَامَسَ المتنبَّىءُ
غیر التُّرابِ الذي وطئتُه خُطاهُ؟
هكذا -

لم يَحْنُ ما تَراءى له
في نُبوءاتِهِ، سِوَاهُ .

لا تموتُ لِأَنَّكَ مِنْ خالِقٍ ،
أو لِأَنَّكَ هَذَا الجَسَدُ
أنتَ ميتٌ لِأَنَّكَ وَجْهُ الأَبَدِ

لِيَكُنْ ،
مِنْ حَقِّ أَحلامِي أَنْ تُهْمَلَ جِسمِي
ولِجِسمِي أَنْ يَخُونَ الأَرَقَّ السَّابِحَ فِيهِ . . .

يُنْبَغِي أَنْ أَدْعُو الذِّئْبَ لِكِي يَجْلُو مِرآةَ خِرَافٍ
نَسِيتَ صُورَتَهَا . . .

لم نَعُدْ نتلاقى
لم يعد بيننا غيرُ نَبَذٍ ونَقْيٍ ،
والمواعيد ماتت ، وماتَ الفضاءُ ، -
وَحُدَّةُ الموتِ

صارَ اللقاءُ .

زهرة -

أَغْوَتِ الرِّيحُ كي تنقلَ الرَّائِحَةَ
ماتتِ البارحة .

تعبني يرقدُ عصفوراً ، - سَأَبْقَى
مثلَ غُصْنٍ :
لن أبوحَ الآنَ ، لن أوقِظُهُ . . .

الغطاء يُشَقُّ، ويُفتَضَحُ التَّرجمانُ
في الحريق الذي يلبس الآن وجه المكان.

مقهى - والبحر، اليوم، ينام كطفل /
هذا وجه أعرفه - أهلاً، كيف الحال، وهذا
صوت أذكره...

- لم يأتِ الفؤال اليوم...

- مريض؟ أم هجر؟

- مجهولون رموه

في بئر...

... / والبحر ينام، اليوم، كطفل...

لَسْتُ هَـذِي الْمَدِينَةَ أَوْ تِلْكَ ،
لَسْتُ الْإِقَامَةَ وَالذِّكْرِيَّاتِ / الْأَقَاصِي رِهَانُكَ - لَكِنْ
خَطَوَاتُكَ مَذْعُورَةٌ
وَتَوَارِيخُ ذَاكَ الْفَضَاءِ الَّذِي كُنْتَهُ
طَيُوفٌ
وَبَوَارِقُ مِنْ شُعْلَةٍ تَتَلَاشَى . . .

خَالِقٌ يَأْكُلُهُ الْخَلْقُ ، بِلَادٌ
فِي الدَّمِ الدَّافِقِ مِنْ أَشْلَائِهَا تُخْتَبِىءُ ، -

إِنَّهُ الْعَصْرُ الَّذِي يَبْتَدِئُ .

كلّما قلتُ: هذي بلادِي تدنو
وتُثمر في لغةٍ دانيّةٍ
قدفتني إلى بلدٍ آخرٍ
لغةً ثانيّةً .

شَجَرٌ ينحني ليقولَ وداعاً
زَهْرٌ يتفتّح ، يزهو ، ينكّس أوراقه ليقولَ وداعاً
طَرَقَ كالفواصيلِ بين التَّنَفّس والكلمات تقول وداعاً
جسدٌ يلبس الرّمْل ، يسقط في تيهه ليقول وداعاً
ورقٌ يعشق الحَبْر
والأبجدية والشعراء يقول وداعاً
والقصيدة قالت وداعاً .

كلّ ذاك اليقين الذي عشتُه، يتلاشى
كلّ تلك المشاعل من شهواتي وأشياءها، تتلاشى
كلّ ما كان بيني وبين الوجوه المضيئة في هجرتي، تتلاشى

أبدأ الآن من أولٍ . . .

يتساقطون، - الأرضُ خيطٌ من دخانٍ
وأظنّ أنّ الوقت قافلةٌ
تسير وراءه . . .

شغفي هنا والآن، تيهٌ
وشكيتي أنّ النّهاية لا تزالُ بدايةً . . .

أشخاص

أحد... .

تحت أهدايه نجوم
غير أن العناكب تنسج أحلامه.

يشتضيء سليمان، لكن بقوة النابذه
حين قال : اهتديت، وأسلم أجفانه
للضياء الذي شِع في بيته
كان وجه الفضاء غراباً على النافذه.

لم يقل قاسم : إنَّ للحلم فأساً
قال : للحلم حَقْلٌ . . .

وردةٌ أجهشتُ بالبكاء
حين غطى عليُّ بأوراقها وجهه ، -
كان يبكي الطيور التي هاجرت
ويُعزِّي الفضاء .

فجأة - في تقاطع دربين ، وجه -
هُوَ؟ لكنه مات ، أوقيل مات . ضجيج
عربات
وباعةٌ خَسَّ وتبَّغ ،

الأناديهِ؟ ناديتُ - وجهُ
لم أُميّز ملاحظه، ردّ... أهلاً،
ما اسمُهُ؟
ضجّة ورصاص - فجأة، وهدير:
صوت نقالة... .

كُلّ نهار...
يَسْتَيْقِظُ قَبْلَ الشَّمْسِ، لينظرَ من شُرْفَتِهِ
كيف يُحْيِي الزَّهْرُ
خطواتِ الفَجْرِ.

- ما الذي يُدخل الفضاءَ لغرفَتِهِ الدّامية؟
- نارُ أشلائِهِ العالِيَةِ.

إِعتذرُ
لِلدُّروبِ التي ضَلَلَّتْها
خطواتُكَ، واخضَعُ
لِلظَّلامِ النَّبيِّ
أكثرُ من مارقٍ أنتَ في هَوْلِ معراجِكَ العربيِّ.

لا المداراتُ، لا اللُّغة النَّافِرة
مِنْ جراحِ المدينةِ أُغوتَكَ، - أسلمتَ لِلحظةِ العابِرةِ
خطواتِكَ، -
لا شيءٌ غيرُ الطَّرائِدِ في غابةِ الذاكرةِ.

جسمك الآن قنديلٌ ظنّ
والمكان يموجُ من الرُّعبِ، عيناك لا تُغمضانُ
خوفَ أن يهربَ المكانُ.

لا أريدك أن تتحدّثَ أو أن تلوّح: أبهى
أن تظلَّ غيباً
كي تظلَّ سؤالاً.

كان هذا ممراً إلى بيتها، - كثيراً
خبأتنا شجيراتُه، ورسمنا
في تقاطيعه خطانا، -
وهنا كان مروان يجمع أصحابه...
مات ميثاقهم وماتوا
وامّحت هذه العتبات.

أخذوه إلى حفرة، حرقوه
لم يكن قاتلاً، كان طفلاً
لم يكن . . . كان صوتاً
يتموج، يعلو مع النار، يرقى على درجات الفضاء
وهو، الآن، شبابة في الهواء.

ليس منديلها ليثم وجهاً
أو يرد الغبار، وليس لكي يمسح الدمع، منديلها
طبق الخبز والجبن والبيض، وهو لحاف
لرشاشها، -
كان منديلها راية . . .

تَرَكَ القافله

ومزاميرها وهواها، -

مُفَرَّدٌ، ذَابِلٌ

جذبتُهُ إلى عِطْرها

وردةٌ ذابلهُ .

سَتَظِلُّ صديقي

بين ما كان ، أو ما تَبَقَّى

بين هذا الحطامُ ،

أيُّ هذا البريقُ الذي يلبس الغيمَ ، يا سيِّداً لا يَنَامُ .

لا يَلْمَحُ غِيًّا، لا يَلْمَحُ ناراً -
مِنْ أَيْنَ إِذْنُ، سَيَجِيءُ الماءُ؟
أيجرّ خطاه مع الكلمات، ويتبع قافلة الأشياء؟

أخذت ما تيسّر من خبزها / كان طفلاً
يتلهّى بعكازها
ويدبّ على قدميّها، -
حملته كجوهرة، غمرته
ورمت فوقه وجهها
ومضت تتوكأ / عكازها
إرثها من أبٍ
مات قتلاً . . .

النهار رغيث
والمساء إدام له،
المساء رغيث
والنهار إدام له
ورق يتقلب في ريجه /
سيكون الشتاء طويلاً
سيموت الربيع بلا أغنيات، -

إن هذا رثاء لليلي التي لم تمت ...

أحداً كنت أو لا أحد
ومضّة أو رماداً
بين أشلاء هذا الزمان، - سواء قُذِفَتْ إلى ظُلْمَةِ القاع،
أو غمرتْك جبال الزبد،
نكهة الفجر أنت، وضوء المسافات أنت، وهذا المدى
لشموسك، هذا الصدى

لأغانيك، - صَوْتِي فِي غَصَّةٍ، وَرِياحِي مَخْنُوقَةٌ،
وَأَغْنِيكَ وَجْهَكَ وَجْهَكَ، لَكِنَّ مَوْتَكَ مَوْتِي
غَيْرَ أَنِّي فِي نَزْفٍ جُرْحِكَ، فِي نَارِ أَوْجَاعِهِ أَتَفَجَّرُ،
أَجْلُو لِنَفْسِي نَفْسِي
وَيُصَالِحُ بَيْنِي وَبَيْنَ حَيَاتِي مَعْرَاجُكَ الدِّمَوِيُّ
وَأَهَاجِرُ مِثْلَكَ بَيْنَ الْفَجِيعَةِ وَالْفَتْكِ، وَالرَّعْبِ
يُوغِلُ فِي خَطَوَاتِكَ فِي خَطَوَاتِي،
وَالْمَوْتُ صَيَّادُنَا الْعَرَبِيُّ.

مُتَّ لَكِنَّكَ الْآنَ أَنْشُودُنِي وَرَفِيقِي
وَأَنَا لَسْتُ مِنْكَ، وَلَكِنِّي أَنْتُمِي لَهْدِيرِكَ، لِلْعَاصِفِ
الْمُتَمَوِّجِ فِي سَاعِدَيَاكَ
وَطَرِيقُكَ لَيْسَتْ كَمَا أَتَنَوَّرُ، لَكِنَّهَا طَرِيقِي
وَأَنَا الْآنَ أَقْرَبُ مِنِّي إِلَيْكَ.

وأنا حين أرنو لموتك، أسأل: هل قدمائي على الأرض؟
هل جسدي راسخ؟
أم تُرى عالقٌ في فضاءٍ من الرُعبِ، مستسلماً
أتدلى؟

وأنا حين أرنو لموتك أسأل: هل أنت أقربُ مني إلي؟
وأسألك: هل وطني هذه الأرض، أم وطني موتك
الأبدي؟

لِنَقُلْ: بيننا عهدٌ نسغ
وطريقٌ - من الجذرِ حتى الثمرِ
لِنَقُلْ: كلُّ ما كان بين العجينةِ والخالقِ انكسرَ
ولنَقُلْ: نبداً الآن من هجرة الرِّيحِ في غابة الشرِّ
ولنُسِرْ، لا لهذا المكان، ولا ذلك المكان
لِنُسِرْ، حيث لا شيء إلا الطريق وإلا الرّهانُ
أننا طاقةُ الجذبِ والنَّبذِ أن رؤانا
وخطانا مدارُ
لأساطير هذا الزمان.

الأسود السيد

الزاوية في الملجأ بؤرة جاذبية، يتجاذبها الضوء والظلام.
تشعر، وأنت جالس فيها أنك شراع يكاد أن يجنح،
لحظة تشعر أنك راسخ كمرساة.

في الزاوية، تكون أكثر قدرةً على الملاحظة. تُراقب ضوء
الشمعة كيف يُعطي للظلام في الملجأ معنى آخر.
وتقول: الظلام هنا لا يشبه الظلام في الخارج. كأنما
حين ينحصر الظلام بين الجدران يزداد كثافة،
خصوصاً في ضوء الشمعة. وتشعر أنت كأن جسبك
يُفلت منك، لكي ينزلق، بشيء من البلامبالاة
الطفوليّة، تحت العربات غير المرئية لهذا اللعب

الصامت الذي يدور أمامك بين الضوء والظلام.
تشعر كذلك أن فكرك نفسه يُفقد منك ويتيه في
زمن آخر. ليس ماضياً تماماً، وليس حاضراً محضاً،
ولا تستطيع أن تؤكد أن المستقبل ليس جزءاً منه.
كأنه عمق بلا قرار تهبط فيه مترنجحاً، لكن بوعي
مسنون.

حين يتيسر لك أن تتأمل الأشخاص الذين يشاركوك
الملجأ، ترى كأنَّ جسم كل منهم طبقات من
السواد، بعضها إلى جانب بعض، وبعضها الآخر
فوق بعض. ومهما كان الشخص ساطعاً، تراه كأن
على وجهه حجاباً.

إذن، نحن الآن نجلس في الملجأ. كلا، لا نجلس - بل نتموّج. ثمّة ما يزعزع تحتنا الاسمنت وأركانه. واللحظات التي كنا نشعر فيها أن المبنى كله يكاد أن يُزلزل من شدة القصف، كانت من اللحظات التي لا تُقال، لأنك إذ تعيشها للمرة الأولى فأنت تعيشها حتى الموت. وبالقول، أنت تحفظ ما يُنسى، ولا تكرّر ما يُعاش.

ملجأ؟ كلا، ليس ملجأ، بل قبو، ربما يصلح لإيواء سيارة أو بعض الأشياء التي لم تعد قابلة لكي تستخدم في الحياة اليومية. مأوى لما ليس حيّاً. أو قبر. يُنسبُه إلى القبر الحقيقي كنسبة النوم إلى الموت. الملجأ قبر مؤقت، كالنوم - الموت المؤقت.

كان البياض الذي يشعّ من الضوء الخافت يَحترق ظلمة
الملجأ، ويُحوّلها إلى نسيج من السواد الموشّع
بأشعةٍ شاحبة. ومن شحوب الضوء في السّواد
وشحوب السواد في الضوء، يتكوّن مزيجٌ - شبح لا
تعرف كيف تفسره أو تحدده. ومع هذا قلما تشعر
بدفء غامضٍ وغامر، كما تشعر وأنت تتأمله.
ربما لأنه جزء منك أو لأنك جزءٌ منه. ربما لأنه
حالة ليست من الطبيعة وحدها، ولا من الثقافة وحدها.

كنت أجيل النظر، وأعطي لبصيرتي مداها، مُحَدّقاً فيه،
أفقياً وعمقياً. وأرى كيف يرسل الاشارات، وكيف
يتغير هيكل هذا الوجود، الشبح - المزيج، مع تجدد
الاشارات، واتساءل: كيف يمكن لهذا السواد أن
يكون نيراً، ولهذا البياض أن يكون سواداً آخر؟

وفي لحظة، بدا لي كأن أنفاسَ السلاجئين المذعورين
تتصاعد وتتناثر على جسد السواد بلورات مشعة،
تنور هذا النسيج الليلي، عنيتُ هذا القميصَ الأسود

الذي يضمنا جميعاً.

للسّواد تاريخ ، وهو تاريخ شامل ، لا العالم وحده ، بل
الذات أيضاً . لا الطبيعة وحدها ، بل ما وراءها
كذلك .

أنا ، شخصياً ، ابنٌ للسّواد . والسّواد ، عندي ، بشرةُ
العالم الذي أراه وبشرةُ المرأة التي أحب . وهو النبعُ
الذي يُغذي ذلك التاريخ الذي يتدفق ماءً أسود -
تاريخَ الفقراء والمحرومين . وأنا عاشقُ الأبنوس ،
وصديقُ الغموض والعتمة .

أينما ولّيت وجهي ، فثمّ وجه السّواد . ولّوني أسود ،
وأكيّف أشيائي لكي تكونَ جديرةً بهذا السّواد .

السّواد السّديم الكونيّ: مادة هذه الخليقة .
والسّواد حبر العالم . .

تعرفُ اللغة، هي أيضاً، كيف تعطي للسّواد بهاءه
وشموله .

فالسّواد هو الشخص، شخص كل شيء . كذلك
البياض: شخص كل شيء، وقد أخذ هذا المعنى
تيمناً بالسّواد .

والسّواد النخل، والشجرُ سُمّي سواداً لخضرته، فالأخضر
يقارب الأسود، والخُضرة تيمّن سواديّ .

والسّواد كلّ ما ليس مدينة، كل ما ينهض في الطبيعة،
وعلى مستواها، محضوناً بأيدي الناس الذين

يعايشونها . كأنما يعملون بيديها ، ويتكلمون
بشفتيها ، ويسرون بخطواتها .
والقرية سواد .

والسّواد معظم القوم . وسواد الناس هم الذين يشكلون
مادة التاريخ . وسواد القلب دُمّه وجوهره .
والأسودّ: الليل . والأسودان : التمر والماء . والسيد
من السواد .

حقاً ، حين تبرز الأرض في أجمل ثيابها ، تبرز في قميص
أسود .

هكذا ، أشعر الآن أن سوادَ الملجأ يأخذني إلى سواد
الجنوب ، الجنوب هذا السّواد الحسيني ، هذا
الأسود ، الأسر ، السيد ، حيث تتمسرحُ الحياة

اليومية أجساداً تتزاحم لكي ترفع راية السّواد،
وحيث يتأكد لك أن السّواد أجمل بيت يمكن أن
يسكن فيه الإنسان .

تنظر إلى المرأة الجنوبية، فتري أنها موجودة، أولاً،
بوجهها، وتري ان سواد الوجه سيّد على الجسم .
وتنظر إلى الرجل الجنوبي، فتري كأن الشخص
الحسيني الانتفاء ليس متجسداً على الأرض، بقدر ما
هو متجسد في فضاء الحسين . كأنه زائرٌ عابر،
وليست الأرض إلا جسداً يعبر عليه الى ذلك
الفضاء .

عاشوراء تكشف وتؤكد: تصل النشوة بذكرى الحسين
وتاريخه إلى درجة لا تميز فيها بين الحياة والموت . بل
تكاد عاشوراء أن تكون مناسبة لممارسة الموت، أو
للحلم به، أو لاستعجاله - كأنه الحياة في أعلى
ذراتها .

الملجأ / امرأة تنهض في السّواد (لا يمكن فصل
المرأة عن السّواد، فهي سوداء حتى في بياضها)
تنهض بثديين أصغر من رُمّانتين، وقامة كأنها
القصْبُ الذي كانت تصنع منه الأقلام، وخاصة
نحيلة يكاد أن يتسع لها الخاتم، تنهض في سوادها
(لا تكون الشمس جميلة إلا حين ننظر إليها، ولا
نقدر أن ننظر إليها، إلا وهي تلبس الغيم)، تنهض
في سوادها الغيمي، وتصرخ: «الموت أفضل . . .
الموت أجمل» .

لم أعرف ماذا أقول لها . أَحَسَسْتُ وأنا أسمع صوتها ولا
أكاد أن أتبينها، أن شيئاً ما يتمزّق: خُيِّلَ إليّ أن
الملجأ قميص، وأنّ صوت هذه المرأة زرُّ سقط من
عُروته التي تجاورُ السّرة . . .

لماذا، لا أقدر أن أرى الجمالَ إلا في السّواد، وفي ما هو
قريب إلى الظل؟
سؤال أطرحه على النهار، وعلى هذه الشمس.

رسائل

يهبط الليل من شُرُفاتِ الفضاءِ،
ويجلسُ في حِينَا
هَرِمًا، شَاحِبًا، ..
مَعَهُ تَجَلِسُ البيوتُ وأحلامُها
تَتَرَامِي على صدرِه،
وتُغَازِلُ عُكَّازَهُ . . .

تنهضينَ مِنَ النُّومِ، - زَنَدٌ حَنِينٌ،
وزَنَدٌ عِنَاقٌ،
يَتَبَادَلُ أحلامَنَا جَسَدَانَا -

نَشْرُبُ الشَّايَ ،
نَسْمَعُ بَيْنَ الْفَنَاجِينِ هَمْسًا .
حَوْلَنَا زَهْرَاتُ
بَعْضُهَا ذَابِلٌ يَتَذَكَّرُ أَوْرَاقَهُ
بَعْضُهَا يَتَعَرَّى ، -
رَغْبَتِي أَنْ أُحَادِثَكَ الْآنَ ، تَجْتَاحُنِي .

كُلُّ شَيْءٍ يُرَدُّ عَنْ حَبْنَا :
السَّرِيرُ
السَّتَارُ
النَّوَافِذُ
صَوْتُ الطَّيُورِ - الصَّدى
وَنَسِيمٌ يُوضِوْصُ مِنْ كَوَّةٍ فِي الْخَفَاءِ ،
كُلُّ شَيْءٍ يُرَدُّ عَنْ حَبْنَا :
نَادِرٌ أَنْ يَكُونَ لِزَوْجَيْنِ هَذَا الْفَضَاءُ .

ليس قلبي شراعاً ولا غيمةً،
ليكونَ خفيفاً ويطفو/ قلبي مدارٌ
فلماذا، إذن، يتطايرُ فيك؟

الشتاءُ يُودّع أشجاره
دونَ أن يتذكّر أنا وضعنا
عنده، نارنا
وامتزجنا بأقطاره / الصيفُ يجهل أحزاننا
والربيعُ أسيرٌ لأزهاره
ولأقلامها -
(كُتبت أمسٍ مرثيةً
رَدَدَتْها رياح الخريف) / الخريفُ يعلمنا كيف نحيا.

- «ما الذي تَسْتَشْرِفُ الآن؟ وما المعنى الذي تبحث عنه؟
واثق أنك تَلْقَاهُ وتَلْقَى
مَنْ يُوَاحِيكَ وَمَنْ يُصْغِي إِلَيْكَ؟

سنغني
ليكونَ الزَّمنُ الطَّالِعُ باباً
وتكونَ الرِّيحُ مفتاحاً - وضعنا
لهبَ الأسرارِ فيه،
ورمَاهُ حبَّنا بينَ يديكَ».

فاصل من الخبار والورق

بين بيتنا وقاعة الدّرس في الجامعة،
فاصلٌ من الغبار والورق اسمه شارع الماما، يتموّج
بحيرةً أرى فيها الدّقائِق بجعاتٍ، والتّاريخ
نيلوفرًا، أو هكذا يُخيّل إليّ.

هذا الشارِعُ ملاكِي الشّيطانيّ . يعطيني الحاسّة التي تُدرك
ما لا يُدرك، والأسرار التي لا تنكشِف . تنقاد إليه
بإلْفَةٍ ويقودُها إليّ . والكلماتُ التي لا تُروّض،
تستسلم لحبره ويُسلمها لأوراقِي .

الجمعة، نهارٌ من الصّلاة والغزل،

يمتلئ بأراغنٍ خفية تنبعث من مقهى جورج، من
ديوان عادل فاخوري وعبد الأمير عبدالله، في
موكب من ملائكة اللذة.

نهارٌ - طائرٌ بزرقة البحر،

يختلط جناحاه بخصلٍ من شَعْرِ عُشّاق وعاشقاتٍ يعلموننا
كيف نوحّد بين ساعات العمل وساعات الحبّ.
يختلط بالكتب التي تتنقل بين الأيدي صحفونا من
الضوء. يختلط بأراغنٍ للحياة انكسرت، لا نزال
نسمع أنينها:

«١٩٧٥ - ١٩٨٤ تاريخ مشنوق

في فضاءٍ من السمّ،

سواء تُمطرُ القتل، والرّعب يُخيّطُ الشوارع،

القنابلُ أسرةٌ للأطفال،

والشّطايا تمشّط النساء»،

يختلط بأجسادٍ تسير أزواجاً - ذكراً وأنثى، تؤسس لعهد
آخر،

- النجاح يمضي وأنا أجيء
الزمن يجيء ونحن نمضي،
هل ترافقيني، هذه الليلة؟
- سأسأل شموعي .

- يدك في يدي جسرٌ يتنزه عليه قلبانا،
- ما أسرع قلبك،
- ما أبطأ جسدك

- من هذا الرجل الذي يشبه أحزاني؟
هل أوماً حقاً، أم شبه لي؟

وفي حين يسخر عادل فاخوري من جمجمة هاملت،
ويستنطق عبدالأمير عبدالله آدم - ذلك الأب
المسكين، يُطلق الطلاب صقوراً من أجسادهم

تطارد الرغبة ، ويسكر الجسدُ بفطرته -

لكي يبقى شاعراً،

لكي لا يرى حوله غير كائناتٍ تهدل بالحبّ.

إنها الرغبة البصيرة التي تحرّر الطاقة ،

إنها العادة - مجبولة ببهارات الروح .

كلا ، ليس للإنسان بيتٌ أجمل من الصداقة .

وانظروا - الدمع نفسه الذي يترقرق في العيون ليس إلا

ماءٌ لريّ الحياة .

الجامعة / شارع الماما،

يكاد جسدي أن يرقصَ احتفاءً بهذه الطالبة التي

تتوهم أنها تقرأ، وهي في الحقّ تنتظر صديقها .

أكاد أن أهجم على كل عابر، فاتحاً ذراعيّ -

صائحاً: أهلاً، أهلاً، مأخوذاً بهذا العيد الماديّ

الذي يصنعه بائع الكتب وبائع العلكة، عاشق

المرأة وعاشق الحزب، الفاكهة من كل نوع
والكلام من كل نوع، ضجيج الأقدام وصخب
الأصوات، بستانُ الصُّور وغابة الشعارات،

وأكاد أن أعلن: كل شيءٍ مُباحٌ في هذه النشوة.
- ماذا يقول عادل فاخوري وعبد الأمير عبدالله؟

- حين يتكلمان لا بدّ أن نصدق،

- أصدق أنا الذي يفهم حزنَ النباتات

ويقراً كتابة العشب.

الجامعة/ شارع الماما،

هديرٌ من جهة الرملة البيضاء

كلا، إنه البحر.

يكفي أيها الجحيم،

وسحقاً للحربِ الكاذبة -

في زاويةٍ من بيتنا ، أحفظ منكِ بشظايا تتغلغل في

لوحات أصدقائي ، في كتبي وأشياي الحميمة ، ولا
أزال أرى دماء الكتب ، وأسمع أنين اللوحات ،
والمس في دفاتري جراحاً لا تلتئم .

وليس بيتنا إلا سَطْراً في كتاب المدينة ،
سُحْقاً للحرب الكاذبة .

أفكر فيك أيتها الشوارع التي احترقت
سوق الطويلة خصوصاً ، والأسواق الشقيقة
المجاورة ،

وأذكر أثينا وروما اللتين نامتا طويلاً على وسائدك ،

بقمصانٍ تأنقت في ابتكار لونها الأرجواني .

أذكر ، وأسمع هديراً من جهة الرملة البيضاء -

كلا . إنه المتوسط بحرنا الحكيم :

أعرف أن هذه الشوارع لم تعرف مرةً كيف تخترع

رصاصة أو أي سلاح يقتل الإنسان ،

وأنها لم تبرع إلا في ابتكار ما يدفعه لكي يُصبح

إلهاً آخر ،

وأنها لم تُنجب غيرَ ما يكمل هذه الرسالة:
الأبجدية والشعر، الشرائع والأشريعة،
مع ذلك سيقول التاريخ:
عاشت فترة طويلة
لم تأكل فيها إلا اللحم البشريّ .

أعرفُ أن الكنيسة لا تعرف وأن الجامع لا يعرف كيف
يُشوى جسم الانسان، وهل يكون أطيب مشوياً على
الفحم، أو مشوياً على الغاز، مقلّياً بزيت الزيتون أو
بزيت عبّاد الشمس،
وأعرف أنّ أيّاً منهما لم يُقم آية وليمةٍ منه، ولم يدعُ أحداً
من الملائكة، ولم يدع القمر ولا أية نجمة،
مع ذلك، سيقول التاريخ:
عاشت هذه المدينة فترة طويلة
لم تؤلم فيها، ولم تأكل
إلا لحم الإنسان .

هديرٌ من جهة الرملة البيضاء،
كلا، إنه المتوسط، بحرنا الحكيم، سيد الرموز سيدُ
الأساطير. يبسط أمواجه في هواء يحمل ملح
الخلقة. أمدّ موائد الحلم، وأدعو أحبابي، -

الزمن صفحةً بيضاء، ونحن الكتابة.

(٢٨ تموز، ١٩٨٤)

طوفي، أيتها الكآبة...

اليوم ، لبست ذاكرتي أجمل ثيابها وسارت إلى جانبي في
شارع الماما . ومع أنه مُثَقَّلٌ بالنجوم التي لها عينان
وقدمان ، فإنك لا تشعر بثقل التاريخ وأنت تعبره .
خفيف وبحب الصعود . النجوم الحقيقية نفسها ،
خصوصاً في ليالي الخريف ، تترنح فوقه ،

تودّ لو تنزل وتصعد به ،
لكنّ انشغالها بصديقها ، الأثير السماوي ، يسلمها
دائماً إلى التردّد والحيرة .

أحياناً،

لكي تقدر خطواتي أن تستسلم لأهواء شارع
الماما، أحمل تماثم لها خصائص الجذب والتبذ.
أضع بعضها في فراغات تفصل بين العين والعين،
وتتحرك مع المارة،

وأضع بعضها ثابتاً في أماكن خفية، لرصد أشياء لا
أبوح بها الآن.

أحمل هذه التماثم لأعرف أيضاً كيف أميز بين خطب
مجهورة وأخرى مهموسة في جهات الشارع كلها.

خطبة، -

«حفروا في بيوتهم ملاجئ»

حفروا في الملاجئ ثقوباً

حفروا في الثقوب ثقوباً أكثر خفاء

تغطوا بالحجر والاسمنت . . لكن

نبشتهم القذائف، والتهمتهم نارها الآكلة».

خطبة ، -

«المرأة التي تستقبلك في سرير (ها)
شجرة ملأى بأعشاش الرغبة
المرأة التي تستقبلها في سرير (ك)
طائر مهاجر» .

خطبة ، -

«للتاريخ مسرح
لا يستقبل إلا الذين يعرفون أن يروا، الآن،
تلك الأشياء التي لا ترى
إلا غداً» .

أحياناً،

تترأى لي، فيما أسير، أشباح أشخاص يسكنون في مذن

أخرى، في بلدانٍ أخرى. تتراءى، فجأة، وعفواً.
وكثيراً، ما أتوقف، متوهماً أنني سأصافح واحداً، أو
أعانق آخر.

ربّما ظننتَ نفسك نبياً، حين يستوقفك في اللحظة نفسها،
أصلُ لشبح ما. أحقاً ما أرى؟ أهذا أنت؟ يسلم
عليك بحرارة، أما أنت فترتبك: لا تزال تذكر
وجهه، لكنك نسيت اسمه.

كيف أنسى اسمه؟ هل شَيِّخْتُ الى هذه الدرجة؟
تتحدثان. يمرّ أشخاص يتحدثون هم أيضاً، -

- كما تشائين،
- أنتظر إشارة.

- يجثو أمامها، كما يحدث في القصص أو على المسرح
ويقرأ لها قصائده

- مسكين،

هكذا دائماً: يمشي، ويتحدث مع نفسه.

تختلط هذه الأصوات بصوتينا - خصوصاً بكلماتي التي
تتشرد بين حضور صديقي وغياب ذاكرتي.

نتبادل عنوانينا، ونفترق.

هل النسيان شكل آخر للموت، أم شكل آخر للحياة؟
أسأل متهدداً، كأني أتوحد مع هواء الخريف.

أكاد أن أنسى ذاكرتي التي تلبس أجمل ثيابها وتسير إلى
جانبي.

- حسناً. دورك الان.

حين جذبتني قدماي الى مقهى جورج، تيمناً بديوان

عادل فاخوري وعبد الأمير عبدالله وبقية المريدين،
شدّتي الذاكرة إلى مقهى آخر: «الهورس شو»/
«سرّة الحمراء» - كنا نقول عنه، يوسف الخال وأنا،
وكنا أول من زين هذه السرّة بوشم الشعر. وكان
طلال حيدر، حين يهبط علينا كأيلٍ شرب لتوّه من
ماء العاصي، تستأثر بكلامنا سرّة أخرى،

لكي نُحسن النّوم (وربما اليقظة)
ولكي يُحسن النّوم صيده الطيّب في بحيرة الليل.

- متى يصدر العدد الجديد من «شعر»؟
- «الشعر كهذا الشارع: عرس المادة وعيدها.. لا نجدد
بيروت حين نسميها أمّ الشرائع، أو حين نستدعي
اليسّار لكي تعلم النساء كيف يجدلن شعورهن
حبلاً للسفن. أو حين نستنفر هنيعل، مذعورين:
هذه روما ثانية، تتهياً لغزونا. أو حين نرجو
زينون: علّما يا سيدي حكمتك، واجعلنا أكثر
صبراً من الحجر...

الشعر عرس المادة وعيدها - في هذا المكان، في هذه اللحظة».

ويمتلئ المقهى بدخان - كلام، يتداخل في نص خارج النوع. ونشعر أن المقهى نهر، والأفكار أوراق تطفو، ونسمع من يقول: الزبد نفسه جزء من الماء.

وترى إلى يوسف الخال صامتاً، كأنه ينتظر زائراً ما، يأتي خفيةً ويضع في يديه مفاتيح لسر ما.

- «أدونيس»؟ كلا، يجلس كل يوم في مقهى الهورس شو. هو من الرؤوس. الشعر خطر أيضاً، شعره، خصوصاً. يجب أن يُعتقل...»

كان هذا الدخان يتصاعد كذلك، في الوقت نفسه، في أمكنة أخرى،

مقهى الهورس شو/

أترك له كآبتي تطوف حوله. ماذا؟ تحاول أن تدخل،

لكنها لا تجد ما تجلس عليه .
طوفي ، أيتها الكآبة .

- «سأريك ما كتبت ، مؤخرأً ، أعطني رأيك في الفكرة ،
وانسَ الخطّ والخبر ، سأعيد تخطيطها» .

إنه عادل فاخوري في ديوانه - مقهى جورج ، يتنبأ
للشعر ، ويعلق نبوءاته أقراطاً في آذان هذه
اللحظات التي تنفر أمامنا كغزالات تقرأ جراحها
النازفة ، وتوغل في غابة الموت .

وكنت - أهْدأي أيتها الذاكرة - تنبأت لشارع الماما ، لبيوته
وأطفاله ، وأجريت في حُبري قوارب حملته في نزّهات
وأسفار ،

وغيرت كتابتي باسمه ،

وفي كل صباح ، تلتصق قدماي بغباره حتى النشوة ،
وأبحث عن جسدي الذي يحبّ دائماً أن يعبر فيه
ضباباً لكي يجاري الروح ، فأراه متقطعاً يتواصل ،
متواصلأً يتقطع ،

وأنحني ، كأنني ألملمُ ذرّات منه - تُفُلت من أصابعي كما
يفلت الماء ،

وأسأل : هل الميت فيّ ذلك الذي غاب من جسدي ، أم
الميت هذا الباقي ؟
طوفي ، أيتها الكآبة . . .

هذا ما كتبه
محمد بن عيسى الصيداني
قبيل موته

سبقوني إلى زمنٍ آخرٍ
دخلوا في عيونٍ من الحلمِ في جسدٍ من ضياءٍ . . .
إنَّ جسَـمِي يُقَاتِلُ جِـسَـمِي ،
وحنيني
جَارِفٌ كِي أُسَافِرَ ، كِي أَتَحَدَّثَ مَعَ رُفَقَائِي .

كُلُّ هَذِي النُّجُومِ الَّتِي تَتَكَوَّبُ تِيَاهَهُ
كَتِفٌ وَاحِدَهُ ،
تَعِبَ اللَّيْلُ مِنْ عِبْثِهَا
وَأَنَا مَثَلُهُ
أَتَقَلَّبُ فِي نَارِهَا الْخَامِدَةِ .

- «الدُّرُوبُ بِلاَ مَنْفَذٍ
والبيوتُ وأَيَّامها رَمَادٌ،
عَبَثٌ مَوْتُكَ الآنَ، لا شَيْءَ غَيْرُ الضِّيَاعِ».

لا تَسُدُّوا فُضائِي
بتعاوِذكم،
واتركوني لهذا الشُّعاع الذي سَأَسْمِيهِ أَرْضِي :
إنَّها الشَّمْسُ بَيْتِي - بَيْتُ لَنَا،
وأنا لست إِلَّا انْعِكَاسَ الشُّعاعِ.

خَائِفٌ . .

هل نسيْتُ الطريقَ التي أخذتني
مرّةً، والتقيْنَا؟

كان ما يُشبه الظلامَ

كان موجُ رمينا

في غواياته جَسَدِينَا

وهوى جامحاً، وهَوِينَا.

خَائِفٌ . . . وكأني نسيْتُ أساريَها

ونسيْتُ أحاديثَنَا

ونسيْتُ الكلامَ.

سَكَنْتُ وَجْهَهَا
سَكَنْتُ فِي نَخِيلٍ مِنْ الصَّمْتِ بَيْنَ رَوَاهَا وَأَجْفَانِهَا . . .
بَيْتُهَا شَارِدٌ
فِي قَطِيعِ الرِّيَّاحِ ، وَأَيَّامُهَا
سَعَفٌ يَابِسٌ ،
وَرَمَالٌ .
مَنْ يَقُولُ لِزَيْنَبَ : عَيْنَايَ مَاءٌ
وَوَجْهِي بَيْتٌ ، لأحزانِها؟

قَطْرَةٌ مِنْ دَمٍ
إِنَّهَا قَطْرَةُ الدَّمْعِ فِي جَوْفِ هَذَا الْمَسَاءِ
حَمَلْتَنِي إِلَى صَدْرِهَا ، -
صَدْرُهَا كُلُّ هَذَا الْفَضَاءِ .

الْمُحُ الآنَ أَحْزَانَهَا
كَالْفَرَاشَاتِ، تَضْرِبُ قِنْدِيلَهَا
حُرَّةً، ذَاهِلَةً
وَأَرَاهَا تُمَزَّقُ مِنْدِيلَهَا . . .

الْمُحُ الآنَ أُمِّي :
وَجْهَهَا حُفْرَةٌ، وَيَدَاهَا
وَرْدَةٌ ذَابِلَةٌ.

بَيْنَ وَقْتٍ وَوَقْتٍ، أَحِسُّ كَأَنِّي غَيْرِي
وَأَحِسُّ كَأَنِّي دَمٌ يَتَدَفَّقُ - أَتَبِعُ خِيَطَ التَّدَفُّقِ،
أَسْأَلُ : مَا اسْمِي ؟
وَلَكِي أَتَخَيَّلُ مَا سَيَكُونُ، أُخَيِّلُ أَنِّي أَضُمُّ بِلَادِي -
الْحَقُولَ، الْجِبَالَ، الْبُيُوتَ
وَأَقُولُ : لَكِي أَتَيَقَّنُ أَنِّي نَفْسِي،
لَا بُدَّ مِنْ أَنَّ أَمُوتُ .

زَهْرُ الْأَفْحْوَانِ
لَا يَزَالُ يُغْنِي لِمَوْتِي
ذَاتَ فَجَرٍ، وَيُؤَثِّرُ مَوْتِي لَيْلًا
لِيَكُونَ الْبَيَاضُ الَّذِي يَتَلَأُّ فِي غُرَّةِ الْمَكَانِ.

شُهْبٌ تَسَاقَطُ مِنْ شُرَفَاتِ الْفَضَاءِ
وَأَرَاهَا تَطُوفُ، -
إِذَنْ، أَتَقَدَّمُ، أَسْأَلُ عَنْ حَالِهَا
وَأُحْيِي خَيَالَاتِهَا
وَأَقْدَمُ جَسْمِي لَهَا
وَالْغِبَارَ الَّذِي ضَمَّه الرُّدَاءُ.

أَعْطِنِي مَا تَرَسَّبَ فِي جَرَّةِ الْأَزْمَنِ
أَعْطِنِي مَا تَرَسَّبَ فِي الرُّوحِ مِنْ تَعَبِ الْأَمِكْنَةِ
أَعْطِنِي كُلَّ هَذِي الثُّمَالَةِ ،
جَسَدِي طَافِحٌ بِسِوَاهُ .
جَسَدِي كُلُّ بَيْتٍ
وَالشُّوَارِعِ فِي شَرَايِينُ ، وَالْبَحْرُ نَبْضُ :
هَذِهِ صُورَتِي
وَأَنَا هَذِهِ الرِّسَالَةُ .

جَسَدٌ فَاضٍ عَنْ قَبْرِهِ :
عَمَّرَ الْأَفْقَ دَاراً ، وَبِالشَّمْسِ حَصَّنَ أَسْوَارَهَا .
وَيَقُولُ أَحْبَاؤُهُ :
مُوْغِلٌ فِي مَدَارَاتِهِ
يَتَهَجَّى الْحَقُولَ وَيَكْتُبُ أَزْهَارَهَا .

- هَلْ تَأَخَيْتَ مَعَ صَوْتِهِ
وَتَنَوَّرْتَ أَغْوَارَهُ النَّائِيَهُ؟
- أَمْسِ ، كُنَّا مَعًا ، وَافْتَرَقْنَا :
نَجْمَةٌ مِّنْ فُضَاءَاتِهِ
أَخَذَتْهُ إِلَى دَارِهَا الْعَالِيَةِ .

«كَانَ طِفْلاً مِّنَ الْبَحْرِ ، طِفْلاً صَدِيقاً لِّأَمْوَاجِهِ
جَسْمُهُ لَجَّةٌ
وَحُطَّاءُ الشَّوَاطِئِ مُفْتَوِحَةٌ»

. . . إِنَّهَا آخِرُ الْأَغْنِيَاتِ
هَلْ سَمِعْتُمْ صِدَاَهَا
يَتَرَدَّدُ بَيْنَ الْحَقُولِ ، وَيَشْرُدُ فِي غَايَةِ الذِّكْرِيَّاتِ؟

لم تمت أمّة :
شعرها ابيضّ ، لكنّ هذا اللهب الذي
يتناسل في بيتها

يتناسل في شعرها ، -
أدخلتني من أول
عبر هذا اللهب وعبر الرماد
في بهاء السواد .

أي عطر غريب؟ سألت النوافذ ،
لا ياسمين ولا ورد في بيتها ، -

إنه عطرها
طالع من خطاها على الرابية
حين كانت تودّع أصغر أبنائها
وتشير إلى شمسبه الآتية .

كان في قبره
لابساً وجهَ طفلٍ ،
طفله كان يرسم في عُرقَةِ الخيالِ
صوراً للرجالِ .

بسم الله الرحمن الرحيم

لا تقولُ الأزقةَ في حِينَا
كيف جاؤوا، ومن أين؟ رَمْلُ الزُّقاقِ
والزوايا وأسرارُها
والتمردُ، والخبزُ - تاريخُهم .
لا تقولُ الأزقةَ غيرَ الفضاءِ الذي شاءهُ العِناقُ
بين أحلامهم وخطاهم ، -
لا تقولُ الأزقةَ إلّا الكلامَ الذي قاله الرفاقُ .

كان مَيِّتاً، يداهُ
مثلُ ظِلٍّ على وَجْهِهِ
وعلى وجهه وَدَاعٌ .
مَنْ يقول له الآن : إني أراه
ملكاً من ملوك الحياة، وإني
أتقَى خطاه؟

سائرونَ إليه، -
وَطَناً يَتَوَهَّجُ بين الجراحِ
(الجراحُ مصابيحُنَا)

سائرونَ إليه
عاشقينَ، سُكَارَى إليه
نَتَقَرَّى، نُقَلِّبُ أحشاءنا . . .
مَنْ يقولُ الرِّيحُ رَمَتْنَا
خلفَ أسواره؟
الرِّيحُ خُطَانَا إليه
والرِّيحُ مَفَاتِيحُنَا .

لا تقولوا: قُتِلْتُ. ولا تَدْبُونِي
إِنَّ مَوْتِي قَمِيصٌ آخِرٌ أُرْتَدِيهِ،
وَأَنَا وَالْفَضَاءُ
جَسَدٌ وَاحِدٌ
مِنْ هَوَاءٍ وَنَارٍ وَمَاءٍ.

لِي فِي كُلِّ بَيْتٍ
وَاحَةٌ وَسِرِيرٌ.
أَيْنَ جَسْمِي ، إِذْنَ؟
- «أَخَذْتُهُ الْحَقُولُ»
لَمْ أَقُلْ / الزَّهْوَرُ،
العصافيرُ كانت تقولُ.

هذه قريتي / قرانا
معجم للصُّور:

صورة الزَّلْزَلَة

صورة لانحناء النجوم على عتبات البيوت،
وهي تزهب بأفلاكها؛

صورة مُثْقَلَة
بشفاه تموت، بأنشودة لا تموت؛

صورة للقمر
يتعشق شمس النخيل
خالعاً ثوبه
ليكفن فيه الشهيد الجميل.

نَهْرُ الْجُرْحِ فَيَضُّ :
كُلَّ صَفْصَافِهِ
أَذْرَعُ مِنْ ضِيَاءِ .
وَالسَّاءُ الَّتِي تَتَمَرَّأُ
فِي تَجَاعِيدِهِ ، غُصُونُ -
قَصَبُ نَاجِلٍ يَتَمَوَّجُ فِي ضِفَّتَيْهِ
وَأَنَا نَائِيهَا
أَتَجَدَّدُ فِي مَائِهِ
وَأَسَافِرُ مِنْهُ إِلَيْهِ .

أَشْعُرُ الْآنَ أَنِّي وُلِدْتُ التَّقَاءَ
بَيْنَ هَذَا التَّرَابِ وَشَيْءٍ
قِيلَ عَنْهُ : الشَّرَرُ
أَوْ عَمُودُ السَّاءِ ، الَّذِي يَتَرَاءَى
فِي حِجَابٍ مِنَ الرَّعْدِ ، أَوْ يَتَقَمَّصُ خَيْطَ الْمَطَرِ .
أَشْعُرُ الْآنَ : وَجْهِي خَدَّانِ - ضِدَّانِ ،
خَدَّانِ - صِنَوَانِ ،
خَدَّ الْفَضَاءِ وَخَدَّ الْحَجَرِ .

كان لي أن أشاهد صدر السَّاءِ
حين فكَّ الجميلُ المحجَّبُ أزرارَها
ورمى ثوبها غطاءً
لِسِرِّرِ اللَّقاءِ.

(٥ آذار، ١٩٨٥)

أغنيات

نشرت بعنوان: أغنيات إلى السيّد الجنوب (الكفاح العربي،
١٩٨٥/٢/١٨) أما «الاسم» فقد نشرت منفردةً بالعنوان ذاته.
(السفير، ١٦ شباط ١٩٨٥).

أغنية إلى لحظة ماضية

مرّة،

سأل الله أعرابه أن يجيئوا إليه

فراهم

بشراً من حديدٍ ورملٍ

يحملون على جمجمه

أرضه المسليمة.

أغنية إلى هذا الزمان

أحمد، مريم، كريم
قرأوا ما يقول المكان وما يكتب المستحيل
وأثوا للنخيل يهزون جذع النخيل:
رطب يابس،
والمكان

في الجنوب شمال، في الشمال جنوب
والمكان كما خيلوا -
خيّلوا أنه الساق والجذع، واستشرفوا رياحاً
من جديد تلقح هذا الزمان.

أغنية إلى الزمن - الضد

لو تجرأتُ، قلتُ: النجوم، السماء وتاريخها،
الناس، واللغة القائمة
جُثَّتْ عائمهُ

لو تجرأتُ، ساءلتُ: مَنْ يُحرقُ الآن؟
ماذا يُسيرُ، بماذا يُجاهرُ؟ هل
قال؟ هل كان؟ هلاً؟

لو تجرأتُ، غنيتُ للمدن الآفله
للرماد المدمى، وللآلة الآكلة،

ولأعلنتُ: هذي
آية الوقتِ، أرضُ
تتناسلُ في جثّة، وربُّ
علّقته الجريمة
فوق أقواسها، تيممه.

أغنية إلى الوقت

إنه الوقتُ، وقت الحصار، الذي لا يرى
غيرَ هذا الدّم المتنقل بين الشوارع،
ملء البيوت الذي لا يرى
غيرَ هذا التفجّر في جسد لا يرى،
وأقول لوجه الجنوب: توجّهتُ
أنّي توجّهتُ أتبعك، تمضي
وأمضي إلى مثلما
وتقود خطايَ إلى كيفما
وتوجّه ناري إلى ما يُزلزل، يومىء لي . . . ربّما.

أغنية إلى المعنى

ليس هذا زمانَ البداءِ ولا آخرَ الأزمنةِ
إنَّه نَهْرُ الجرحِ يدقُّ من صدرِ آدمٍ ، -
معناه يُوغِلُ في الأرضِ ،
والشمسُ صورتهُ المُعلنهُ .

أغنية إلى زينب

حضنتُ زينبَ طفلها
تَتَوَرَّسُ سِرَّ اللقاءِ وعُرسَ اللقاءِ
بين تاريخها والبكاءِ .

أغنية إلى بضعة حروف

كان للميم أن يصنع القاف جسراً
ويعمر للواو بيتاً
من ضياءٍ وحبٍّ،
كانت التاء تربو وتعلو، -
إنها اللغة الهادية
والقُرى تتفتحُ ، والقلبُ يقرب من داره النائبة .

أغنية إلى فاطمة

فاطمة
تُنزل القمرَ السَّاهِرَ المتمرد من بُرجِه
وتقود خطاه إلى بيتها
وتعدُّ له كي ينام رفيقاً لطفلتها النائمة .

أغنية إلى المائدة

للصداقة بيني وبين الجنوب، وأحزانيه العائده
كتب، وثياب
نسجتها البيوت، الرياح، العناصر/
لا تهدم القاعدة
ابتهج واقتحم
وادع مصباح هذي الدروب لكي
يرئس المائدة.

أغنية إلى الاعتراف

ابْتَهِجْ واعترف
للجنوب، لشمس الجنوب، لنيران
أحشائه المضمرة
والكلام الذي لا يُقال اعتراف
وأقول الوصول قريب قريب
وأرى قامة الموت محنية
وأقول التواريخ تزهو وتقطف أعشابها المسكرة.

أغنية إلى المسافات

نشوة / موجة بادئة
في شواطئ من لهفة،
مرحباً، يا ضياء المسافات، لن أقطع الخيط
بيني وبينك، أحزانك الدافئة
تتسرب في خطواتي
مرحباً، أيها الخطوات التي تتخاصر في كلماتي.

أغنية إلى اللغات

كل تلك اللغات - الشطايا، خمائرُ

للمدن المقبلة

غيّروا بنية الاسم والفعل والحرف، قولوا

لم يعد بيننا حجابٌ

لم تعد بيننا سدودٌ،

واشرحوا صدوركم

بالفواتح من سُورِ الرّغباتِ،

وجنّاتها المقفلة.

أغنية إلى أحمد ومريم وكريم

أحمد، مريم، كريم
قمرُ السيّد الجنوب يزور بيوتاتهم
ويقبل أحجارها،
قمرُ السيّد الجنوب يعلّق فوق العرائش قفطانه
قمرُ السيّد الجنوب يكرّر ميثاقه
للحقول وأزهارها،
ويصلي صلاة الشروق على وردة الغروب
قمرُ السيّد الجنوب.

أغنية إلى عاشق

النجومُ كمثل الثقوبِ
في فراشِ أحبائه - خطاهُ
شجراتٌ تمتدُّ إلى البحرِ خدّاً
والى جبلٍ يتوضأُ بالبحرِ خدّاً،
وتمدُّ على الهاويه
جسرَ آفاقها،
وأنا الروايةُ
أتحدّث عن عاشقٍ في الجنوب،
وعن عاشقِ الجنوبِ.

أغنية إلى ميت

دَمُّهُ يَقْطُرُ الْآنَ مِنْ وَرْدَةِ الْفَضَاءِ،
مِنْ حُرُوفِ النَّحَاسِ وَمِنْ كَلِمَاتِ الْحَدِيدِ،
وَمَوْعِظَةِ الْكِيمِيَاءِ:

لَيْسَ مَوْتًا كَمَوْتِي كَمَوْتِكَ، هَذَا
مَوْتُ أَوْهَامِنَا، -
دَمُّهُ الْآنَ سَجَّادَةٌ لِلشَّيْءِ..

أغنية إلى هو

لم أقل يا أخي أنت ميتٌ
قلتُ تمضي ، وتعرف ماذا سيأتي
وانتهت خطواتك ، لكن ظلّك ما زال
يمتدُّ طفلَ اليدين ، تُرى أنتَ حيٌّ ،
وعيناك عيناى ، والموتُ ما بيننا مزايا ،
وأرى ما رأيت ، أترجم نفسي لنفسي :
أترانا دمٌ واحدٌ ؟
نتقاسمُ خبزَ الفجيعةِ والحبِّ ، خبزَ الحياةِ
غريبين ، مُستضعفين
وأنادي : أنا كربلاءُ الحنين ،
وتصرخُ : يا سيّدي الحسين .

أغنية إلى الجرح

أحمد، مريم، كريم
نزل الموت في حيّهم
يتسقط أحلامهم
يتصيد آخر ما يتوالد في ماء أحلامهم،
غير أنني أنا الرواية
سأقول لكم ما رأيت على الضفة الثانية:
كل يوم يُغنون للشمس كي تترجّل عن سرجها
وتفيء إلى ظلّهم، -
عشقت قوس أهدابهم
عشقت كحلهم
عشقت لون جنائهم،
وأراها

جمعت كل أعنابها، ورمتها
قطرة قطرة في خوابيهم،
وأقول - أنا الرواية:
هكذا ينسج الزمان خطاه بأشلائهم
ويعهد أشلاءهم
طرقاً لخطاهم:
إنه اللعيب - الطفل، نرد الرياح
ولهم ما يلقيح جذع المساء بنسف الصباح
ولهم كل هذي الحقول، لهم كل هذا اللقاح.

أغنية إلى فلاح

خوذة؟

باطل زعمكم

هذه آخر البرتقال الذي كان يسكن في حقله .

أغنية إلى ما تشاء

كل شيء يليق / ابتكر ما تشاء -

المضارع ماضٍ ،

والذي لم يكن كان ،

والغيب حس ،

واضطرب مثل لج

إنه الحب يكشف عن شمسك الغائره

في تجاعيدك النافره .

أغنية إلى الخيال

كان للعين أن تتصيد من غابة الخيال
كل ما خططوه وما اجترحوه
ضد تلك الوحوش التي سُميت واقعاً،
لم أكن شاهداً، كنت أصغي
من بعيدٍ بعيدٍ،
للصخور التي تتحدث عن أول الرجال،
وعن آخر الرجال.

أغنية إلى الكتابة

بعد هذا وهذا وهذا
لا الشوارع ماتت، ولا الموتُ تذوي
رياحينه
والغرائبُ ليست نقيضاً لما قُلْتُ /
قُلْتُ الكآبة
دفترٌ آخرٌ للكتابة.

أغنية إلى السرّ

أتركّوه لأسرارِهِ :

مرة يُجلس البحرُ في حضنِهِ
مرة، تحت شُبّاكِهِ،

اتركّوه لأسرارِهِ :

يتقنّع بالعشب، أو يتلبّس وجه الحجرُ
اتركّوه لأسرارِهِ حَقْلَ حَبّ
يتحوّل في كلّ فصلٍ
ويقلّب في راحتيهِ الشّجرُ.

أغنية ثانية إلى هو

طَوَّقُوهُ بِأَهْدَابِهِمْ وَأَفَاؤُوا عَلَيْهِ
هُوَ فِيهِمْ كَرُوحٍ تَرْفَرُفُ ، وَالْحُبُّ
كَالْعَرْشِ ، وَالشَّمْسُ مَجْمَرَةٌ فِي يَدَيْهِ
وَحَوَالِيهِ ، تَعْلُو أَسَاطِيرُهُمْ ، -
كَيْفَ ، أَنِّي وَمَنْ أَيْنَ أَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الزَّحَامِ
وَأَنَا لَسْتُ إِلَّا الْمَحْدُوثُ وَالرَّائِيهِ
لَسْتُ إِلَّا الصَّدَى
يَتَرَصَّدُ فِي بَابِهِ النَّبِيُّ - الصَّدَى ،
وَاحْتِضَارَ الْكَلَامِ .

الاسم

كان هذا الذي يتغطى
بالرماد (يغني
للرماد وأسراره
يتموج ، يعلو...)
والذي نَتمرأى
في جراحاته ، ويمرئي
في عذاباتنا وجهه ،
والذي عاش في نَسَمٍ من حنين ،
والذي قيل في مَدْحِهِ - التبغ والبرتقال ، الجراح
وأشجارها ،
الرفض والجامحون ، الذي لبسته النجوم
لتدفا ، والريخ كي لا تكون عقيماً ،

والذي حضنته بساتينه

وقراه، وفلاحه، والطفولة، والعاشقات
وعشاقهن،

الذي جاء من عتَماتِ الدروب، وجاءت إليه

الدروب،

الذي يُقرىء البحرَ ما كتبه الحقولُ.

الذي قيلَ : إيقاعه

نبضُ شطآنه،

قيلَ : أحراشه منجمٌ لأساطيره،

والذي قيلَ : محراثه

كي يفتقَ صدرَ التراب، ويوكلُ للشمس

إكسیره،

والذي كان يكمنُ للموتِ في وردةٍ

(حين لا يتيسر أن يجلس الموتُ في حضنيه)

والذي لم يقل مرةً : يائسُ

والذي عاش في البرد والحر دهرًا

ليقلّم زيتونة

أو ليُجني تفاحةً

كان هذا الذي جاء من عَتمات الدروب، وجاءت إليه
الدروب

كان هذا الجنوب
سيداً، جامحاً مثل موجٍ
صامتاً مثل صخرٍ،
لم يَفُ مرةً باسمه
(الشمال اسمه
بعلبك وبيروت والأرز والفقراء اسمه)

كاذ أن يَمحي
خاشعاً في رداء التواضع، كي لا يُقال: الجنوب

(لم يَسِر في بيانٍ ولم يتوكأ على توريّة
كل ما قاله هذه الأغنية:

«شجرُ البرتقال
مُثَقِّلٌ بالقنابلِ والراصدين،
فكيف سيهربُ هذا الدخيلُ ومن أين؟

لا منفذ في السهول،
ولا عاصم في الجبال».

كان هذا الذي ينحني خاشعاً
للذين يموتون كي يفتحوا الدروب،

كان هذا الذي كاد أن يمّحي
في رداء التواضع كي لا يقال: الجنوب،

كان هذ الجنوب.

(١٦ شباط، ١٩٨٥)

حالات

حالة غطاء

حينما تفتحُ الشمسُ مُخدَعَهَا للمساء
تتراءى النّوارِسُ منسوجةً غِطاءً
فوق وجه السّماء.

حالة شيخوخة

كلّما قلتُ : شَيْخْتُ ، واستنفدتني الجراحُ ،
رَجّني عاصِفٌ ، وكساني
بتقاطيعه الصّباحُ .

حالة غيمة

غيمةٌ من كلامٍ
تُبَخَّرُ من جثث الأنبياء
وتغطي الفضاء.

حالة لحظة

وُلدت لحظةٌ
من زواج المدينة والرِّفص، زَوْجَتِها
لفضائي، وأعطيتها خاتمي، -
كلَّها ضاقتِ الأرضُ، أيقظتُها
وهي الآن في زَهْوِ إيقاعِها
وهي الآن تحيا معي.

حالة نبع

مَنْفِيٌّ هَذَا النَّبْعُ ، وَمَنْفَى
لِلظَّامِ هَذَا الْمَاءُ ، وَهَذَا الْمَجْرَى -
فِي الْكَلِمَاتِ وَفِي الْأَشْيَاءِ
أَيُّحُونَ النَّبْعُ ، أَيُّحُو
مَا يَكْتُبُهُ قِثَارُ الْمَاءِ؟

حالة وردة

أَخَذَ الْمَوْتُ يَقْرُبُ، يَهْبِطُ فِي الْمَاءِ، يَلْتَهُمُ الْآنِيَّةُ
لَمْ تَجِدْ وَرْدَةً الْآنِيَّةُ
غَيْرَ أَنْ تَنْحَنِي:
تَتَلَاشَى، وَتُسَلِّمُ لِلْمَوْتِ أَوْرَاقَهَا الْحَايِيَّةُ.

حالة كرسي

أطراف أربعة
لكن لا أعرف أيّهما
رجلاك، وأيّهما
زنداك، ويبقى
أن أشهد: أنت الأكثر صبراً
من أطراف الإنسان، وأنت الأبقى .

حالة الصّحراء / النرجس

للماء نائي كنت أسمع وأسمع شهوتي
لغة تأخر وحيها

وتحيء بين هنيهة وهنيهة
غيرت قافلتى، - الخليقة طينة / نرد، سألها
بسريرتي وبئردها.

وأنا الذي ولدته صحراء / أيائل حلمه

مكسوة بنخيلها

وسدى لعبت النرد مع قمر، وطفت على بساط

من سندس،

وسدى أملت بما يقول غراب ظني،

أو بما يعد الخراب

يا شعر، يا حوذينا المجنون خذني /

خُذْنَا لِنَسْبِقَ مَوْتَنَا
لِنَرَى، لِنَكْتُبَ مَا سَيَأْتِي
وَنَكُونَ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ.

صحراء - أم
وأنا الشهادة، ضائعاً
يهذي كمن يمشي على
أشلائه
يمشي ويرتجل الفضاء .
وأنا الشهادة، أرضنا
طمست
لكثرة ما تراكم فوقها
من أنبياء .

صحراء - سر:
هذا هو السرّ المبين،
سحابة
تلقي عباءتها عليّ، حفيفها
لغة النجوم الآفله، -

تِيه، وقافله تضيّع قافله .

صحراء- تلمسني حصاة: أنت أنت،
والمس الرمل الصديق: أأنت أنت؟
شرارُك التهم الشراراً،
صحراء- تحمل نخلة

نجماً، وتحمل ناقة
قمرأ، وتبتكر الصحاري،

صحراء- نرجسها يغوص، يعوم في تيه المرايا
متكسراً:

صوراً يراقصها ويبكيها ويرسم وجهه
فيها، يُفتت بعضه بعضاً،
يُجنُّ بهذه الصور- الشّطايا

نسجَ النهارَ بليله
حلماً أحبّ لكي يُضيء، لكي يموت / ونرجس
هذي البقايا

لا، ليس نرجس غير طيف
لا، ليس هذا الطيف غير بكائه

صحراء تلتهم الفضاء، وليس نرجس غير قبر، -

هوذا أراه، كما روت أحلامه
نسي الطريق لمائه، نسي الكلام،
هوذا أراه متوجاً بسرايه
أعطى لأطراف السماء يديه، من تعب، وناما .

الولد الراكض في الذاكرة

قَوْسٌ رَیْحَانٍ عَرِيشٌ مِنْ حَمَامٍ
وَالشَّبَابِیْكَ رَمَتْ أَبْوَابَهَا
لِیْدِ الرِّیْحِ / الْحَقُولُ
قَرِیَّةٌ مِنْ سَعَفِ النَّخْلِ وَمِنْ جَبْرِ الْفُصُولِ.

غَضَبُ الرَّعْدِ وَلُطْفُ الْغَيْمِ فِيهَا رَبَّيَانِي
قَرِیَّةٌ نَسْهَرُ فِي سِرْوَاهَا
وَيَبْوَحُ التَّيْنُ وَالتَّوْتُ بِمَا تَحْجُلُ مِنْهُ الشَّفَتَانِ.

فِي أَعَالِي شَجَرِ النَّخْلِ نَمَتْ ذَاكِرَتِي
هَذَا السَّمَاقُ نَجْنِيهِ وَهَيَّأْنَا الْبَقُولُ

ونقول التَّابِلُ الطَّيِّبُ لَنْ يَنْقُصَنَا هَذِي الْعَشِيَّةُ
هوذا يَحْتَضِنُ النَّسْرَيْنِ طِفْلُ
كِي يَرُدَّ الْوَرْدُ لِلْوَرْدِ التَّحِيَّةُ.

فِي أَعَالِي شَجَرِ النَّخْلِ نَمَتْ ذَاكِرَتِي
إِنَّهُ النَّرْجَسُ يَأْتِي حَافِيًا
مَا الَّذِي يَشْغَلُهُ
وَالرَّفِيقُ الْعُشْبُ يَعْطِينِي ذِرَاعِيهِ وَأَعْطِيهِ قَمِيصِي
وَتَغْطِينَا يَدَا زَيْتُونَةٍ
لِي فِي دَفْتَرِي الْأَخْضَرِ شُبَّاكٌ وَفِي الْأَزْرَقِ وَعْدٌ
لِي فِي مُحَفَظَةِ الشَّمْسِ كِتَابٌ . . .

فِي أَعَالِي شَجَرِ النَّخْلِ نَمَتْ ذَاكِرَتِي
نَبْعُ صَفْصَافٍ، بُكَاءُ
أُتْرَى أَسْمَعُ لِلْجَنِّ عَزِيفًا
أَمْ هِيَ الْأَغْصَانُ مُوسِيقَى؟ تَرْنَمُ

أَيُّهَا الصَّفْصَافُ وَاْمْنَحْنِي أَنْ أَصْغِي إِلَيْكَ
أَنْ أَرَى وَجْهِي مَرْسُومًا عَلَيْكَ
هَاجِسًا يَقْرَأُ صَوْتُ الْمَاءِ فِي صَمْتِ الْحَجَرِ
وَدَمًا يَكْتُبُ / فِي أَوْرَاقِهِ
مَطَرٌ يَمْشِطُ أَغْصَانِ الشَّجَرِ.

هَبَطْتُ ذَاكَرْتِي
مِنْ أَعَالِي شَجَرِ النَّخْلِ / سَلَامًا
لِلصَّدِيقِ الْوَلَدِ الرَّاكِضِ فِي ذَاكَرْتِي
لَمْ يَزُرْنِي الْيَوْمَ لَمْ يُومِئْ إِلَيَّ
مِثْلَمَا عَوَّدَنِي - أَسْلَمْتُ وَجْهِي
لِمُرَايَاهُ: مَنْ الضَّائِعُ مِنَّا؟
وَمَنْ الصَّامِتُ وَالنَّاطِقُ؟ غَامَتِ
شَفْتَاهُ - أَتُرَاهُ سَاكِنٌ فِي شَفْتِي؟

أَيْهَذَا الْوَلَدُ الرَّاكِضِ فِي ذَاكَرْتِي
جُرْحِي النَّازِفِ يَسْتَعْصِي وَلَكِنْ

جسدي يَنمو ويزهو
فأنا والبحرُ في الموت سواءُ
وأنا قبرة الحزنِ أنا ذئبُ القرَحِ
أيُّها الطالِعُ من هذا الفضاءِ
أنت جرحُ آخرٍ ينزفُ أم قوسُ قُرحٍ؟

هبطتُ ذاكرتي
من أعالي شجر النُّخل / سلاماً
يا شبيهي الولدُ الرَّاسِبُ في ذاكرتي
أنت مَنْ يَجمعُ في نَبْضي أم أنتَ الحريقُ؟
وسلاماً أيُّها الطِّيفُ الصِّديقُ
عشتَ محمولاً على نَرْدٍ وسميتَ القمرَ
فَرَساً حيناً وحيناً فارساً
كانت الشمسُ تؤاخيكَ وتبني
معكَ البيتَ الذي تبنيه من قَشٍّ وتلهو
بالحصي مثلكَ / لو تعطيني الآنَ يَدِيكَ . . .
وسلاماً

أيُّ هذا الشَّجر المائلُ في ذاكرتي
أأنا نطقتُ أم صمتك أو ما تنقلُ الرِّيحُ إليك
من عُبار الشَّجر الآخِر؟ لو تعطيني الآنَ يدك
لو يقول الأفقُ السَّاهرُ في ليلٍ رؤاك السَّاهره
ما الذي تمخضُ في غابةِ أيَّامي رياحُ الذاكره...

في أعالي شجر النخل نمت ذاكرتي
لم أكن أعرفُ أنَّ الجسدَ العاشقَ مرسومٌ بمنقارِ سنونو
لم أكن أعرفُ أنَّ الحبَّ لا يعرفه إلاَّ الجنونُ

لَمَن النِّجْمَةُ تُرخي شعرها
وتلاقيها إلى البَيدِرِ أفراسُ التَّعبِ
بين عينيها طريقٌ ويداهما
خِيَمَةٌ...

حقاً؟ خُذيني
... / حوضُ أحزانٍ وماءُ اللَّيلِ / غُصْنَا

واقْتَسَمْنَا قَمَرَ الْمَاءِ ، يَقِيناً
تَحْلُمُ النَّجْمَةُ أَنْ تَسْكُنَ بَيْتاً مِنْ قَصَبٍ .

(بيروت، أيار، ١٩٨٢)

شطح

لِمَلَأْتُكَ مِنْ فِضَّةٍ وَرِصَاصٍ
لِرِمَالٍ تَجَرَّ جَلَابِيهَا الذَّهَبِيَّةُ
تَتَهَاوَى وَتَنْشَجُ فِي قَفْصِ الْأَبْجَدِيَّةِ، -

- إِنَّهَا أَرْضُهُ الرِّثَّةُ النَّازِفَةُ
مِثْلَمَا يَفْقِدُ النَّهْرُ مَجْرَاهُ، وَالْبَرْقُ
شَعْلَتَهُ الْخَاطِفَةَ
وَأَرَاهَا تَنَامُ

غَيْرَ أَنِّي أَوَاجُهُ هَذِي الصَّحَارَى كَأَنِّي فَجَرُ الْكَلَامِ
وَأَقُولُ بِلَا دَهْشَةٍ
زَمَنُ شَهْوَةٍ وَأَرَامِلُ مِنْ مَعْدِنِ
وَالْمَكَانُ انْشِقَاقُ

- دائماً كان هذا المكانُ انشقاقاً
وخرائطاً من طُحلبٍ وغبارٍ،
دائماً كان هذا المكانُ
يَتَكَسَّرُ في قبضتين
مِن حصارٍ وفتكٍ . . .

غيرَ أني أواجه هذا المتأه كَأَنِّي فجرُ الكلامِ
وأقولُ بلا دهشةٍ
ظَهَرَتْ نجمةٌ أَكَلَتْهَا
نملةٌ
وأكرّرُ أَنَّ الدّخانَ
عُرْسٌ لِلرّيحِ - أَقْبَلِي ما تَبَقِيَ
مِن دمي : وَرْدَتَيْنِ -
قَلَقِي وحنيني
وَأَنسَجِي يا رِياحُ مناديلَكَ الخَفِيَّةَ
منهما، ولتكنِ بِأَسْمِنَا تحيَّةَ
للرّحيلِ وأطلالِهِ العَرَبِيَّةِ.

وأقول بلا دهشة
وَطَنٌ بَعْضُ ظَنٍّ، وهو الآن

- لا تتفوه

أُتْرَى ضَلَلْتِكَ الرَّؤْيَى أَمْ جُنِنْتُ؟

وهو الآن مقبرة: شُرْطِي

مِنْ حَدِيدٍ، وَوَادٌّ، وَمِنْ أَيْنَ أَنْتِ؟

وَعَبَرْتَ هُنَا أَوْ هُنَاكَ الْحُدُودَ
رَأَيْتَ الَّذِينَ يَتَوَقَّوْنَ لِلنُّورِ يُطَوِّوْنَ طَيِّبِ الثِّيَابِ وَيُرْمَوْنَ فِي
دَرَكَاتِ الظَّلَامِ

لَتَمْنَيْتِ أَلَّا يَعُودَ الْكَلَامُ
غَيْرَ هَذَمٍ وَنَارٍ
وَلَمَزَقْتَ هَذِي الْخَرَائِطَ هَذِي الْبَنُودَ
وَلَجَدَفْتَ مِثْلِي
وَطَنٌ بَعْضُ ظَنٍّ . . .

وأقول بلا دهشةٍ

أُملايين خضراء والصَّوت منها ومنها الصَّدى
وأنا ذئبٌ هذا المدى
وحدي الهالك المتخبَّط لا كوكبٌ لا هُدى
ضائعٌ بين حقلٍ وحقلٍ
أتقرَّى عروقَ النباتِ وأسأل عن زهرةٍ أختها

وأقول بلا دهشةٍ

واتني يا زمانَ التعبِ
صِرتُ أهوى الجلوسَ إلى صخرةٍ المستحيلِ
مثلَ طفلٍ يحبُّ الرِّحيلَ
في الفضاءِ على صهوةٍ من قَصَبٍ .

- لا تقولوا: هروبٌ ويأسٌ

تَهْرَبُ الرِّيحُ كي تحضنَ الأرضَ
والْيَأْسُ يفتحُ أبوابه الملكيّة
لانفجار المداراتِ، قولوا: نذيرٌ

واسمعوا الشاهد المغطى
بجدوع النخيل
واقراءوا الشاهد المدون بالتمر والزنجبيل
في صحائف إستبرق . . .
وأقول بلا دهشة للندى
هل رأيت المكان خبرت الحقول
بشر هؤلاء الذين يغطونها أم بقول؟
هكذا أتجرأ أن أعشق الندى
وأغنيه، - يجري كأن السحر
ضفتاه

ويفض حقايبه كالرسائل بين غصون الشجر
ما الذي حملته يداك؟ لمن يكتب الأفق أسرارهُ؟
والطريق الذي يتناول في ضفتيك - دم آخر،
أم بريق يغامر، أم شاعرٌ محتضر؟

وأقول بلا دهشة
عجبي أنني لم أشيخ
عجبي أن هذا الحطام

لم يَزِدْنِي إِلَّا بهَاءً، -
- هي ذي وَرْدَةٌ تتشهى
أن تكون امرأه
بين أحضانِه
- هي ذي تتوهجُ نيرانُه المطفأه

وأنا الآن طفلٌ كأنَّ القمر
جرسٌ في خطايَ / بلا دهشةٍ أقولُ
لي هوايَ ولي سكرةٌ لا تزولُ
والحروف نساءٌ تُوشِوشُنِي ما تُحبُّ وأمنحُها شَطَحَاتِي
ونقيًّا من الوهمِ أجهرُ هذي حياتي
شرًّا وخيولٌ من الضوء تُفْلِتُ من عرباتِ الصُّورِ.

اسماعیل

مُتَدَثِّرًا بدمي ، أسيرٌ - تقوُّدُنِي
حُمَمٌ ، ويهديني رُكَّامٌ ، -
بشرٌ تموج حشودُهم
طوفانُ ألسنةٍ : لكلِّ عبارةٍ
مَلِكٌ ، وكلُّ فمٍ قبيلةٌ .
... وأنا الذي نبذته كل قبيلة^(١) .

وخرجتُ تحضنتني الجراحُ ، وأحضن الأرضُ القتيلةُ ،
أبني خيامي في دمي
وأقول لِأسمي أن يلمَّ دفاتري

[(١) يمشي وحيداً
يمشي أمام زمانه .

من بيت اسماعيل^(٢) /

(اسماعيل يطفو

صحراء^(٣) من كتب تموت، وفوقه

قمرٌ تقلد سيفه

ومضى يجر نياقه . . .)

/ . . . وأنا الذي نبذته كل قبيلة^(٤)

أتسقط الشرر الدليل / بنات نعش

يرقدن في زغب الظلام / رأيت وجهي شامة

في ضوئهن، رأيت موتي

طيراً على كتف الظلام،

(٢) لو كان اسماعيل حقلاً، لسكنت غيمي فوقه،

لو كان إعصاراً لكنت لعصفه أفقاً، وكنت خليله . . .

(٣) صحراء - عقد من رمال، والقوافل خيطه . . .

(٤) عبثاً تسأل عن صديقك / مات،

والبيت الذي آواه مات / احفر طريقاً

للقائه، في قلبك الباقي - ولكن

أتظن أن القلب يبقى؟

والرمل يرتجلُ الكلامَ .

في الجانب الشرقيّ من نهر الفرات لقالق
حملت مفاتيح الرحيل ، وقوّضت
أعشاشها ،

في الجانب الغربيّ ، ينهض هيكلاً -
ثديان ينتفخان قشّاً .

/ . . . وأنا الذي نبذته كلُّ قبيلة
هوذا تُفرّقني يداي / دمي يُحاربه دمي
جسداً يُمزّق في جسد
والحبّ لا أحد ، وموتي لا أحد^(٥)

من أنت؟^(٦) يصرخ بي حطامي
ويكاد ينكرني كلامي .

(٥) لا ماء يعرف أين صحرائي ، وكيف أذوقها .

(٦) ألقى بأسئلتي ولا ألقى جواباً . .

نَارُ تَجِيءُ إِلَيْهِ مِنْ أَرْضٍ تَعُومُ، تَنَامُ تَحْتَ وَسَادِهِ

نَارُ تَجِيءُ إِلَيْهِ مِنْ أَرْضٍ تَعُومُ عَلَى رُؤُوسِ
حُشِيَّتٍ بِالسَّنَةِ - خَلِيقَةُ خَالِقٍ يُمْلِي الدَّمَاءَ
كُتْبًا، وَيُثَبِّتُ مَا يَشَاءُ لَهَا، وَيَمْحُو مَا يَشَاءُ
نَارُ تَجِيءُ إِلَيْهِ مِنْ أَرْضٍ تَعُومُ - يَكَادُ يَأْخُذُهُ الشَّرَارُ
مِنْ أَيْنَ يَخْرُجُ - كَيْفَ يَخْتَرِقُ الْحَصَارُ؟ (٧)

وَدَّعْتُ / أَذْكَرُ قَاعِدًا

فِي بَيْتِ إِسْمَاعِيلَ (٨)، - يَرْبُطُ صَخْرَةً

بِسَحَابَةٍ

وَيَشِجُّ بِالْحَجَرِ النُّجُومَ، - يَعِيشُ بَيْنَ سِلَاحٍ
شَطَحَتْ، وَنَامَتْ.

وَدَّعْتُ / أَذْكَرُ هُودَجًا

(٧) يُعْطِينِي الشَّجَرُ الْكَرِيمُ رِذَاءَهُ

وَيَمْدُ لِي نَجْمٌ يَدِيهِ . . .

(٨) أَحْلَامُ إِسْمَاعِيلَ جَائِيَّةٌ، وَجِبْهَتُهُ تَرَابٌ /

مَا كَانَ إِسْمَاعِيلُ إِلَّا

صَوْتًا يَقَاتِلُ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَلَيْسَ لَهُ فُضَاءٌ.

يهذي^(٩) بسيدتي ، وأذكر أمةً
تهذي بآخر ما تبقى :

وحشٌ بلا رأسٍ ، يُتوجُّ نفسه
ربّاً ، ويبسطُ ظله

وطناً كقبة المهرج . . / (ظله^(١٠)) .
أرضٌ تمدّ حقولها سرراً ، وتهدي . . .

ودّعتُ ، وارْتَسَمَ الأفولُ على جبيني
ومنحتُ للزمنِ المفتتِ نبرتي
ومنحتُ نبرتهُ يقيني .

(٩) طهمازباي - لم يزل يهذي بذبح شقيقه
ويقتل كل مخالفٍ .
(١٠) . . . ولظله
عَسَسَ ، وينكجريته . .

/ . . . والأرض^(١١) تدخل في السعال المعدني / شوارع
رُصِفَتْ بأطفالٍ - ذبائح^(١٢) / أمة
تزهر بعرشٍ من عظام^(١٣) .

إذهب وطف /

فكر كاسمالكٍ مُعَقَّنَةٍ ، مدينة السِّنِ
قُطعت وديست .

إذهب وطف ، وسَلِ الجذورُ

كيف ارتدى جسد المكان وحوشه

أوسَلِ غراب الأبجدية - جسم إسماعيل ، (إسماعيلُ
خارطة العصور) .

إذهب وطف /

افتح هنا رأساً ، هنالك فكرة

(١١) أرض من الانقاض / غاب قبائل ومذابح

أرض تتوج عصرنا

ملكاً علي عرش الخرافة

أرض توسع بين خطوتنا وهول جحيمنا ، هول المسافة .

(١٢) ذبح ، وجلادون يقتسمون جلد ذبيحتهم .

(١٣) أهدي قرقماس لزوجته سواراً .

من عظم طفل .

سترى لوجهك صورةً مجهولةً
 وترى ثيابك فوق جسمٍ غيرِ جسمك . ربّما
 صادتُك أنيابٌ لها
 لغة الملائك ، أو لها
 شكلُ السماء
 إذهب وطفُ /
 سترى خنازيراً يُحولها الكتابُ الى ظبَاء .

. . . / ونخافُ من جسِّ الرغيفِ ، وما نقولُ لقاتلِ
 نسجِ الدماءِ وسائداً؟ (١٤)

مَنْ أنتَ إسماعيلُ؟ (١٥) نازفةٌ خطاكُ

(١٤) إجراءً سلطانٍ / أنتَ مُغفلٌ
 أم جاهلٌ لتقولَ : لا؟
 (١٥) هل كان إسماعيلُ قافلةً
 ترى الضدَّ الجميلَ ، وتصطفيه أخاً لها؟
 هل كان يرفعُ رأسه
 قوساً لموكبِ قلبه
 ويرى السماءَ طريدةً لخياله؟
 هل قاده غيبٌ الى اسراره ، حقاً ، وطوفَ باسمه

كُتِبَ يَلْمِلُهَا حُوءٌ

في كُلِّ حَرْفٍ حُفْرَةٌ
في كُلِّ فَاصِلَةٍ سَرَابٌ
خَشَوْ، وَرَجَمَ خِرَافَةً، -

لَمْ تَبْقَ عِنْدَكَ لِي مَكَانًا لِيَخِيطَ حَبْرِي ثَوْبَهُ
لِيُؤَاخِيَ اللَّهَبُ الْمَحْرُورُ مَا أَحْسُ وَمَا أَقُولُ / شَطَرْتَنِي
وَفَصَلْتَ بَيْنَ دَمِي وَبَيْنِي، -
مَنْ أَنْتَ إِسْمَاعِيلُ، كَيْفَ أَرَاكَ لَحْظَةً لَا أَرَاكَ؟

لَكِنَّ إِسْمَاعِيلَ جَرَحُ
وَأَنَا رَفِيقُ عَذَابِهِ، وَرِوَايَ حَانِيَّةٍ عَلَيْهِ
وَأَنَا رِسَالَةٌ مُنْتَمٍ - لَا مُنْتَمٍ، كُتِبَتْ إِلَيْهِ.

/ . . . والأرضُ تدخلُ في السُّعالِ المعدنيِّ /

حُبُّ لَوْجَةِ الْحَبِّ - يقرأ في الشعائر حُلْمُهُ؟
هل كان اسماعيلُ ظناً، أم كان إثماً؟

نبيها هيُّ بنُّ ييَّ (١٦) .

والأمة انحسرت وذابت
في جدولٍ وحلٍ يسيلُ يذوبُ في هيِّ بنِ ييَّ .

يا شمسُ ، يا قدمَ النهارِ ، تركتَ ليلَكِ عندنا
ونسيتِه . .

- من أنتَ ؟

- من تميمٍ .

«وَلَوْ أَنَّ بُرْغوثاً على ظهرِ قملةٍ .
يكرّرُ على جَمْعِي تميمٍ ، لَوَلَّتِ» (١٧) .

- لا ، لستُ من تميمٍ .

- من أنتَ ؟ تغلبيُّ ؟

(١٦) هيُّ بنُّ بيا آلهُ

لا شيءٌ يقدرُ أن يترجمَ سحرها .

(١٧) كُجُكْ - يسنّ حرابه

هَدمَ البيوتَ لكي يُقيمَ حصونهُ .

- لا ، لست تغلبياً^(١٨) .

... / والأرضُ تدخلُ في السُّعالِ المعدنيِّ / نبيُّها هيُّ بنُ
بي^(١٩) .

من أنت إسماعيلُ؟ مَسْرُحُنَا^(٢٠) يواصلُ عَرْضَهُ
- «من أجل مجدك في العُلَى!»

عُنقُ القذيفةِ كاهنُ
يصلُ الزَّمانَ بخيطه
ويَخِيطُ سِرُّوَالاً لكلِّ دقيقةٍ
- «من أجل مجدك في العُلَى!»

(١٨) كُزْلَارُ آغا - قال: أموال الصناجقِ للأميرُ

أخذَ السبايا واشترى

تعيينه بالمال / قرهاذ خليفته الصغير .

(١٩) جاؤوا بآخر من تبقى

- جاؤوا بأرجلهم ، وجاؤوا

بأنوفهم : حكمُ به طومانُ أفتى .

(٢٠) حفلُ /

وتشربُ كلُّ جمجمةٍ سُلَافَةً حبَّها من جوف ميت .

مَنْ أَنْتَ إِسْمَاعِيلُ؟ (قِيلَ الشَّمْسُ عِنْدَكَ جَرَّةٌ، وَالْأَرْضُ
صَحْنٌ...)

هَلْ أَنْتَ قَلْعَةٌ سَاحِرٍ، أَمْ رَأْسُ غُولٍ؟
- «مَنْ أَجَلَ مَجْدِكَ فِي الْعُلَى!» (٢١)، -

رُئِيَ الْعَصُورُ تَمَزَّقَتْ
وَالْأَرْضُ خِرْقَةً حَائِكٍ.

(٢١) زَبْدٌ... / واسماعيلُ يطفو
جبانةً تجتر موتاهاً وتسكب ريقها
مرثيةً، -

والأرضُ تدخل في السعالِ المعدنيِّ / نبئها
هيُّ بنُّ بيِّ.

مُتَدَثِّرًا بدمي ، أسيرٌ - تقودني
حُمَمٌ ويهديني حُطَامٌ -
حَفْلٌ تخصُّ به الإِبَادَةُ نَسْلَهَا
حَفْلٌ لاسماعيلَ يَخْتِمُ الزَّمَانُ (تُراهُ يَفْتَحُ الزَّمَانُ؟)
حَفْلٌ يضيقُ به المكانُ - وقيل إسماعيلُ جاءَ وقيل غابَ -
ضيوْفُهُ ملأوا المكانَ

مِلَلٌ وآلهةٌ يؤاْكِلُ بعضها
بَعْضًا ، ويأْكُلُ بعضها
بَعْضًا ، - ويختلط الكلامُ

- حشدٌ يوزع وَرْدَهُ
فرحاً بمقصلةٍ تُقامُ .
- الأطلسُ العربيُّ جلدٌ نعامةٍ غلبت نعامةُ
- لا غالبٌ إلاَّه / سَرَجُ حصانه
ذهبٌ ، وجبهتهُ غمامةُ .

- من أنت؟ من أمية؟ (٢٢)

- لا ، لست من أمية .

- من أنت؟ هاشمي؟ (٢٢)

- لا ، لست هاشمياً .

حَفَلْ لاسماعيل (إسماعيلُ جاء وقيل غاب) ضيوفهُ

مِلَلْ وآلهة يؤاكل بعضُها

بعضاً، ويأكل بعضُها

بعضاً، - وتمتزجُ الألوهة بالرصاصُ

(أهو الخلاصُ؟) (٢٤)

(٢٢) «وهي من أمية بنيانها

وهان على الله فقدانها...»

(٢٣) «بني هاشم، عودوا إلى نخلاتكم

فقد صار هذا التمر، صاعاً بدرهم

إذا قلتُم: رهطُ النبي محمدٍ

فان النصرى رهطُ عيسى بن مريم»

(٢٤) هل كنت تسأل عن نجوم قبيلتي؟

أفلتُ/ أحبُ الأفلين - صدقتُ: أجنحة الدجاج ملائكة

والشمسُ قشرة برتقاله

أَدْعُوكُ إِسْمَاعِيلُ ، خَمْرَةٌ عَهْدِنَا
سُكِبَتْ ، وَمَائِدَةُ الْغَسَقِ
فِي زَهْوِهَا -

وَأَنَا وَأَنْتَ السَّاقِيَانِ ، وَحَوْلَنَا
حَشَرَاتُ أَسْلِحَةٍ تَطَوَّقُنَا وَتَفْقَسُ بِيضَهَا . . .
أَدْعُوكُ إِسْمَاعِيلُ ، أَفْتَحِ النِّهَايَةَ : لَسْتُ نَسْلَكَ (٢٥) .

أَعْطَيْتُ قَبْلَكَ جَنَّتِي حَوَاءَهَا
وَرَأَيْتُ وَجْهَ اللَّهِ قَبْلَكَ .

أَدْعُوكُ إِسْمَاعِيلُ ، أَنْهِيَ مَا بَدَأْتُ - أَقِيمْ فِي بَهْوِ الْعُصُورِ
وَلِيْمَتِي .

أَجْتَتُ نَفْسِي مِنْكَ / (آخِرُ نَوَاسٍ)

صَدَّقْتُ : جَنْسِي طَحْلُبٌ ،
وَاللَّهُ آله .

(٢٥) أَجْتَتُ نَفْسِي مِنْهُ ، - أَهْلِي :
قَتَّالُ آلِهَةٍ ،

وخالقُ غِبْطَةٍ ،
وَمَحْرَرٌ . . .

قرأ الشواطىء جالس
قُربى ، وأوّل نورسٍ
كُتب الشواطىء جالس
قُربى) وأُفتِتحُ البداية ، خالقاً
لعباً كوجه الله يسبحُ في مياه الأبدية :
في كلّ شيءٍ سرّه
يجري ، وليس لمثله
أن ينتشي بجدوره
أو أن تحاصره هويّه (٢٦) .

من أوّل ، أتعلّم الكلمات ، أتقنُ سرّها
وأقول : جذري
لعب ، وتيه مباحج ، -
كشفتُ يدشنُ كلّ ضوءٍ
شغفاً ، ويفترش التراب كمثل نبع (٢٧) ،

(٢٦) ماذا؟ كأن الماء ذاكرتي / أأسكنُ قلبَ نبعٍ؟
(٢٧) أعطيتُ نفسي صبوتي ، ونسيتُ نفسي .

وأقول : أسلافي هوى
عشق الفضاء، وصاغ من جسد الهواء شراعهُ
والفجرُ يلبسني مبادلُهُ، وكلّ سحابةٍ
وطنٌ لحيّ (٢٨)،

وأقول : حيّ
من أولٍ، يتعلّم الكلمات، يُتقن سحرها
ويشارك العنب النبيل بمكره؛ (٢٩)

أيامه الشجرُ الملقحُ بالفصول - يدهُ فجرُ
لا فجر إسماعيل، بل هذا الدم المسكوب في كأسِ الكلام
لا الأمس، بل هذا الحُطامُ :

(٢٨) خبّأت حزني في جدارٍ - في بيتنا المهدوم / نجمٌ
ساهرٌ يحنو عليه، -

يأسي قناعُ
غضبي غزالٌ نافرٌ يرعاه طفلٌ .
(٢٩) ماذا يقول مُقيّدُ

يمحو النبيّ كتابه
يمحو الكتابُ لسانه؟

جُثْتُ - أَخُ وَأَخٌ ، حداثُ عاشقين وأصدقاء
جُثْتُ - مواعيدٌ ، تلهفُ غائب
وحنينٌ منتظرٌ ، وصبوةٌ حالمٍ
جُثْتُ - مَوَائِدُ ، نُقْلُهَا كُتِبَ وخمرتها السماءُ .
جُثْتُ - وتعجزُ أن تُميزَ : أيُّها
سيفٌ يَجْزُ ، وأيُّها
عُنُقُ ؟ يُجْزُ ، وأيُّها . . .
جُثْتُ - وتخرجُ من بُخارِ سديمها
سَوْرٌ تقولُ : القتلُ مُبتدأٌ ، ويُخلطُ قاتِلٌ بقتيله
ويصيحُ بيتٌ : إني قبرٌ ويصرخُ شاعرٌ :
شعبي فضاءٌ دمٍ ، ويلتبسُ الفضاءُ على الفضاءِ .

مُتَدَثِّرًا بِدَمِي ، يَسِيرُ - تَقُودُهُ
حُمَمٌ ، وَيَهْدِيهِ حَطَامٌ :

أَتَقَدَّمُ الْكَلِمَاتِ نَحْوَ سَرِيرِهَا
لَأَرَى بِحِيرَةً مُوتَهَا ، -

قَالَ الْغَسَقُ
عُنُقُ الرَّمَادِ مَدَدْتُهُ (٣٠)

جَسْرًا لِكُلِّ نَبْوَةٍ ، -

قَالَ الْغَسَقُ

(٣٠) مَزَجَ الرَّمَادُ ثِيَابَهُ
بِالرَّيْحِ / نَامَ : وَسَادَهُ
أَفَقُ وَشَمْسُ .

جَسَدُ الْمَدِينَةِ قَاجِلٌ
لَقَّحْتُهُ، وَجَلَوْتُ لِلنَّسْعِ الْمَحْرُورِ جَنَسُهُ، -
قَالَ الْغَسَقُ

لَوْ أَنَّ لِي بَيْتًا لَكُنْتُ دَعَوْتَكُمْ
وَلَقُلْتُ : فِيهِ تَوَافُونَ وَتَكْفُرُونَ
وَتَجِدُّونَ وَتَسْخَرُونَ وَتَحْلُمُونَ
وَلَكُنْتُ أَرْحَبُ سَاحَةِ لَجَنُونِكُمْ
وَلَكُنْتُ أَصْدَقُ صَاحِبٍ، -
قَالَ الْغَسَقُ.

... / وأنا الذي نبذته كل قبيلة (٣١)
ليكون لي أن أسمع الصوت الذي همسته حنجرة الغسق،
أعطيت للحقل الصديق شقائقي

(٣١) قاومت، - حتى الضوء مات / ألسن نبضاً؟
في كل شيء نبضة ماتت / أتنهض؟ كيف أعطي
لخطاي دربك؟ كيف أبدأ؟ أين أمضي؟

أعطيت أوراق الفصول محابري
أعطيتُ ذاكرتي لكل ثنية
في ذلك الجسد الذي سمّيته
وطناً، وعاش بلا وطن،

ولبستُ شعري كالكفن (٣٢)

أعطيتُ قرميدَ الثلوج قصائدي
دفناً له،
أعطيتُ شيخَ الريح عُكازاً توارثه أبي عن جدّه
أعطيتُ أهدابَ الرياح نوافذي
أعطيتُ كلَّ مهيمٍ شغفي وناري
أعطيتُ هاجرَ كلِّ ما يُعطيه ابنُ
أعطيتُ إسماعيلَ أجملَ ما رآتهُ طفولتي ،
ليكونَ لي أن اسمعَ الصّوتَ الذي همّسته حنجرةُ
الغسقِ .

(٣٢) جلسَ النهارُ الى خواني مرهقاً
وبكى / فرحتُ ، - رأيتُه يبكي معي .

غَسَقٌ وإِسْمَاعِيلُ يَدْخُلُ فِي الْغَسَقِ
إِمْلَاءٌ صَحْرَاءٍ، وَرَأْسُكَ - طَائِحًا، إِيْقَاعُهَا (٣٣).

غَسَقٌ وَتَبْتَهَجُ الطَّبِيعَةُ بِالْغَسَقِ
وَدَمِي نَشِيدٌ لِلْغَسَقِ
صَفْصَافَةٌ فَرَشَتْ جَدَائِلَهَا لِتَحْتَضِنَ الْغَسَقُ
مَاءٌ يَفَارِقُ نَبْعَهُ لِيَرَى الْغَسَقُ
فِي كُلِّ شَيْءٍ زَهْرَةً
تَحْنُو عَلَى كَتِفِ الْغَسَقِ؛ (٣٤)

غَسَقٌ وَتَرْتَطِمُ السَّمَاءُ بِخَطُونَا، -
هُوَذَا أَصَافِحُ خَالِقًا
جَمَدَتِ أَصَابِعُهُ، وَأَعْطِي

(٣٣) مَا زَالَ جَبْرُ الْكَهْفِ يَرْسُمُ فَاسَهُ
فِي قَلْبِ عَصْرِي : لَسْتُ مِنْهُ، أَنَا نَقِيضُ :
حَفَارُ أَحْلَامٍ ، - غَيُومٌ
وَعَدْتُ بِبَرْقٍ .
(٣٤) أَيْنَ اتَّجَهْتُ، أَرَى قُلُوبًا
ثَقَبْتُ، - أَرَى رَأْسًا تَدُلُّى . . .

لُغْتِي لحبر الموت، - أَتُبِعُ هذه الكُرة الخفيفة
من خيوط العنكبوت
وأقول: أرضي عاشقٌ مَيِّتٌ وعاشقةٌ تموت .
هوذا ، سأرسم كوكبَ الغسقِ المضيءِ على يدي ،
لكي أحيي وردةً

ذُبُلْتُ ، وكنتُ قطفتُها
من شُرْفَةِ الزمنِ الذي آخيته ،
ولكي ألامسَ طينها بكرةً ، يردُّ الى العناصرِ سحرها

ويقول لِلُّغَةِ اتبعيني
هذا هو الغسقُ الجميلُ قَتِيلُهُ يَرِثُ القَتِيلُ
هذا هو الغسقُ الدليلُ (٣٥) .

(٣٥) كتف النهار جريحةً ، والليل يعرُجُ / حينًا
قبرٌ ، - سأقطف وردةً وأضمها لرسائلي :
بيروت ناقة هارب ، والموت هودجها / رأيت جرائمًا
ترعى ، رأيت خرافها
ورأيت رقص معادن . . .
وأرى : الخيامُ هي الخيامُ ، أرى : الطلُّولُ هي الطلُّولُ
طُرُقُ مُزَنَرَةٌ بعصف سديمها
والنارُ تعرف ما أقول . . .

متدثراً بدمي ، أجيء - يقودني
حلمٌ ويهديني بريقٌ ، -
هياتُ بيتي لابنِ رُشدٍ
وأبي نواسٍ ، والرّضي
وكتبتُ للطائي أن يأتي ، وقلتُ لذي القروح : أبوالعلاء أتى ،
وأحمدٌ ، وابنُ خلدونٍ ، -

سنعلنُ آيةَ الأحشاء ، وسوسةَ السّديمِ الأوّلِ
ونفكُكُ اللغةَ الدفينه
في غابةِ الأشياءِ ، - نقرأُ صخرةً
غمُضتُ ، ونسمعُ ما تُوشوشُ باسمينه
ويدورُ في خلدِ الحقولِ :
الحبُّ زهرةٌ رغبةٌ
والشعرُ فاتحةُ العقولِ (٣٦) .

(٣٦) قَرَدٌ على حجرِ التنبؤِ جالسٌ
يرنو اليّ كأنني قديسهُ :
أقولُ اسماعيلُ ناري ، هاجرُ
بيتِي ، وإبراهيمُ بردٌ ؟
ماذا أقولُ له ؟ أأزعمُ أنني

٠٠ / وأنا الذي نبذته كل قبيلة
أدعوك، اسماعيل، اكمل ما بدأت / أقيم في بهو العصور
وليمتي
لم يبق من جسد المكان سوى التراب / حضنته
طيناً، وضربة خالق -
لعباً يذوب في دمي ترياقه، -

ببراءة اللعب التبت، - رأيت في الحجر الجناح،
رأيت جسمي وردة
تملي كتاب رحيقها، والكون جبر
ببراءة اللعب اتحدت، وغيّرت
صور الطبيعة - قلت للعب استبح جسدي وخذني

رب؟ وأعلن جنتي :
حواء تفاح، وآدم شهوة
والموت مفتاح السماء؟
أقول: لي قدم هنا، ويد هناك،
ولي خيول في الهواء؟

يَا شَيْخَ حَبِّي ، أَيُّهَا الْبَحْرُ الْمُنَوَّرُ ، أَعْطِنِي
حُضْنًا يَشَارِكُنِي جُمُوحِي
لَكَ صُورَةٌ - أَطْرَافِي ارْتَسَمَتْ عَلَى أَطْرَافِهَا
وَأَنَا وَأَنْتَ مُضَرَّجَانِ بِعَهْدِنَا (٣٧) .

وَأَنَا هَوًى بِطَرٍّ يُحَصِّنُنِي - أَنَا حُلْمِي أَخْطُ غَيُوبَهُ
صُورًا تُكَاشِفُنِي
أَنَا جَسَدِي ، وَلِلْجَسَدِ ابْتِهَالِي
وَالْحَلْمُ زَهْرُ مَوَائِدِي
وَالْحَلْمُ خَبْزِي وَاحْتِفَالِي ،
فَأَرَى كَأَنِّي طِينَةٌ
جُبِلَتْ بِغَيْرِ غُبَارِهَا
وَيُضَمِّنِي جَسَدِي إِلَى جَسَدِي ، وَيَسْأَلُنِي سَوَالِي .

وَأَرَى كَأَنِّي

(٣٧) عَهْدٌ يُنَوِّرُ صُورَةَ الزَّمَنِ الْجَدِيدِ ، -
زَمَنٌ - هَيَامٌ خَالِقٌ ، وَبِهَاءٌ عِيدٌ .

آخَيْتُ بِهِلُولًا، وَسُقْتُ إِلَى الْمِيَاهِ قَطِيعَ نَخْلٍ^(٣٨)

(لَوْ أَنَّ إِسْمَاعِيلَ يُعْتِقُ نَفْسَهُ مِنْ نَفْسِهِ)

آخَيْتُ بِهِلُولًا وَسَحْتُ، صَحَبْتُ سَرَّخَسَ نَشْوَةٍ
وَلَبِسْتُ صَفْصَافًا، وَقَلْتُ الْوَرْدُ خِيْمَةٌ عَاشِقٍ
(لَوْ أَنَّ إِسْمَاعِيلَ يُعْتِقُ نَفْسَهُ مِنْ نَفْسِهِ)

آخَيْتُ بِهِلُولًا وَكُنْتُ الْجَسْرَ بَيْنَ غَوَايَةٍ وَغَوَايَةٍ
(لَوْ أَنَّ إِسْمَاعِيلَ يُعْتِقُ نَفْسَهُ مِنْ نَفْسِهِ)

آخَيْتُ بِهِلُولًا وَأَسَكَنْتُ الْخَلِيقَةَ فِي رِدَائِي
وَجَهَرْتُ: أَوْلَى أَنْ يَكُونَ الْحَقُّ مِعْرَاجًا وَرَائِي

آخَيْتُ بِهِلُولًا لِأَدْخُلَ فِي الْأَفْوَلِ
وَأُضْمَّ آخِرَ زَهْرَةٍ لِتَكُونَ أَوَّلَ مَا أَقُولُ^(٣٩).

(٣٨) لِلنَّخْلِ أَقْوَاسٌ وَلَيْسَ لَهُ سِهَامٌ.

(٣٩) سَأَقُولُ إِسْمَاعِيلَ وَادٍ مِنْ حَجَرٍ

سَأَقُولُ إِسْمَاعِيلَ فَخَارٌ تَشْفِقُ وَانْكَسَرُ

سَأَقُولُ إِسْمَاعِيلَ صَنْعَةٌ صَانِعٍ

وَأَقُولُ هَاجِرٌ لَمْ تُهَاجِرْ.

ما كان كأن

حَضَرُ وَبَدُو - مَعْجَمٌ لِخُرَافَةٍ

(جَنَحَ الْغُرَابُ إِلَى الْبَيَاضِ / فَلَانَةٌ

كَتَبْتُ طِفْلُوتَهَا رَقِيمَ هَوًى وَأَرْخَهُ فُلَانٌ

بَيْتاً لِإِسْمَاعِيلَ - حَقْلَ دَمٍ) / أَقُولُ

أَعْطَيْتُ عَصْرِي لِلْغُبَارِ، دَخَلْتُ فِي رَجَمِ الْأَفُولِ

طَيْفًا لِتَارِيخٍ يَجِيءُ، - أَكَادُ أَسْمَعُ خَطْوَهُ:

يَا صُورَةً سَتَجِيءُ، يَا لَغْتِي وَحْبِي

إِنْ كُنْتُ وَاحِدَةً، فَبِاسْمِكَ - بِاسْمِ هَاجِسِكَ الْكَثِيرِ، أَنَا أَنَا، -

وَأَنَا سِوَايَ (كَأَنَّ إِسْمَاعِيلَ يَخْلَعُ نَفْسَهُ مِنْ نَفْسِهِ)

غَسَقٌ وَتَبْتَهَجُ الطَّبِيعَةُ بِالْغَسَقِ

وَدَمِي نَشِيدٌ لِلْغَسَقِ، -

بَحْرٌ يَمُوجُ إِلَيَّ مُسْتَعِلاً يَكْرُرُ مَوْجُهُ -

هَذَا هُوَ الْغَسَقُ الْجَمِيلُ - قَتِيلُهُ يَرِثُ الْقَتِيلَ

هَذَا هُوَ الْغَسَقُ الدَّلِيلُ.

(بيروت / تموز - تشرين الأول ١٩٨٣)

الفهرست

| | |
|-------------------------|-----|
| الوقت | ٥ |
| صحراء، I | ٢١ |
| ضوء الشمعة | ٣٥ |
| صحراء، II | ٦٧ |
| أشخاص | ٨٧ |
| الأسود السيد | ١٠١ |
| رسائل | ١١٣ |
| فاصل من الغبار والورق | ١١٩ |
| طوفي، ايتها الكآبة | ١٢٩ |
| هذا ما كتبه محمد بن | |
| عيسى الصيداني قبيل موته | ١٤١ |
| أغنيات | ١٥٩ |
| الاسم | ١٨٣ |
| حالات | ١٨٧ |
| الولد الراكض في الذاكرة | ١٩٩ |
| شطح | ٢٠٥ |
| اسماعيل | ٢١١ |

حاضِناً سنبلةَ الوقت ورأسي برجُ نارٍ:
ما الدَّمُ الضَّارِبُ في الرَّمْلِ، وما هذا الأفولُ؟
قُلْ لَنَا، يا لَهَبِ الحاضِرِ، ماذا سنقولُ؟

مِزْقُ التَّارِيخِ في حنجرتي
وعلى وجهي أماراتُ الضَّحِيَّةِ
ما أَمَرَ اللُّغَةَ الآن وما أَضْيَقَ بابَ الأَبْجَدِيَّةِ.

